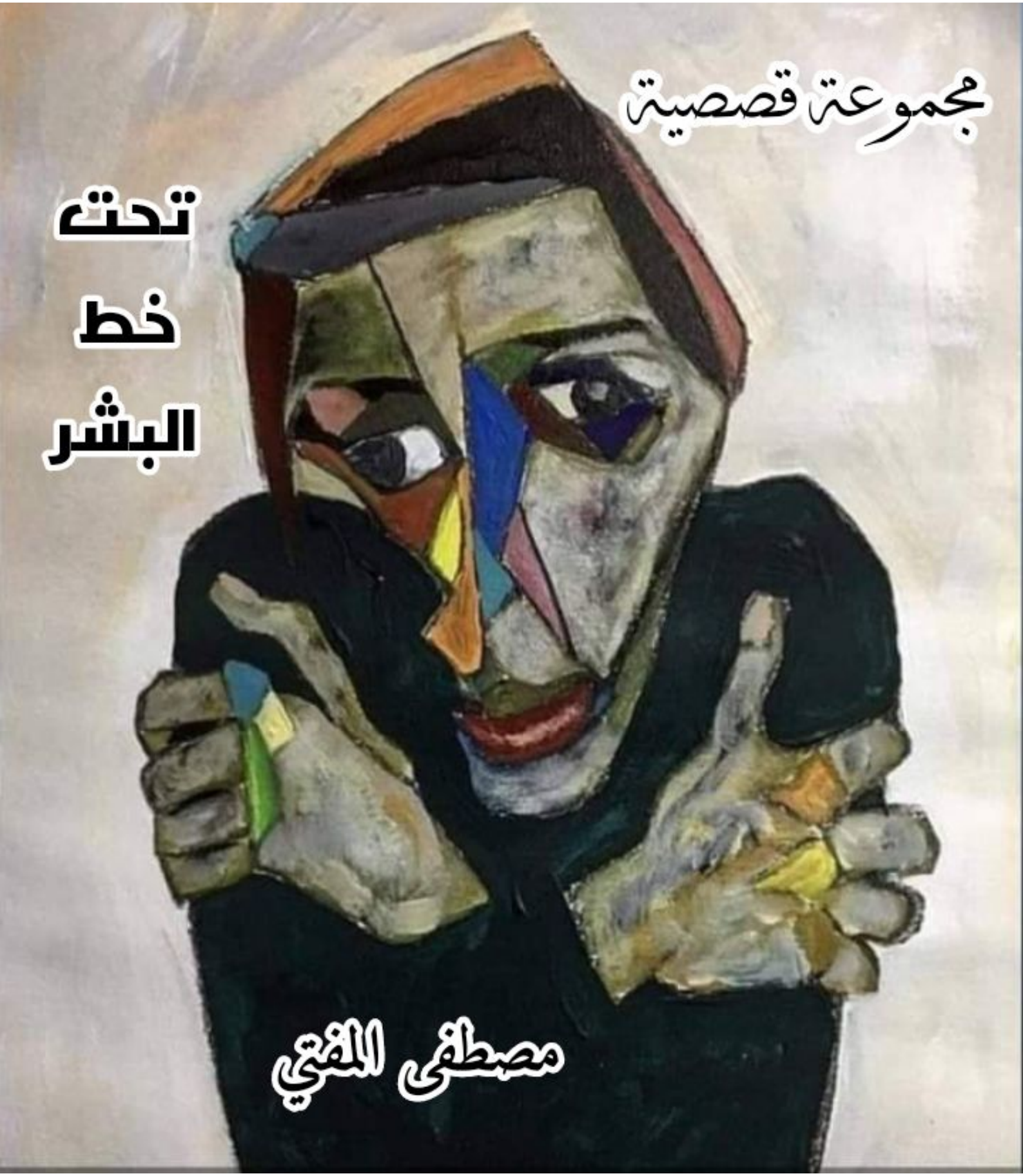
مجموعة قصصية
تحت
خط
البشر
مصطفى المفتي

تحت خط البشر

Bu kitap veya herhangi bir bölümü, yayıncının ve yazarın önceden izni alınmadan hiçbir şekilde yayınlanamaz, geri alma yöntemiyle kopyalanamaz, hiçbir şekilde elektronik, fotokopi ile iletilemez veya başka bir dile çevrilemez.

This book or any part of it may not be published, reproduced by retrieval, transmitted in any electronic form, photocopied or translated into another language without the prior consent of the publisher and author.

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نسخه عن طريق الاسترجاع أو نقله بأي شكل إلكترونيًا أو تصويره أو ترجمته إلى لغة أخرى دون الحصول على موافقة مسبقة من الناشر والمؤلف.

تحت خط البشر

الكتاب: تحت خط البشر

المؤلف: مصطفى المفتي

النوع: مجموعة قصصيّة

الطبعة الأولى **istanbul - 2022**

isbn: GGKEY:6HUHW6DJ2D

الناشر: آيلا للنشر والتوزيع

الغلاف: طارق الحسيني

للنشر والتوزيع

كل الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب، تعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يتحمل الناشر أدنى مسؤولية

جميع الحقوق محفوظة

تحت خط البشر

مجموعة قصصيّة

مصطفى المفتي

آيلا
AYLA
للنشر والتوزيع

آيلا
AYLA
للنشر والتوزيع

قطعتا سكرٍ في كأس شاي بارد
منجلٌ مكسور
ثلاث فوارغ ومقذوفٌ قد نزعتهُ من معصمي.
طاولة صغيرة عليها ثلاث كلماتٍ من شطرٍ لم استطع إكمالهُ،
وقلمٌ يكتب حرفاً ويشطب آخر، وفراغٌ كبير.
نصف سكارة أُطفئت، أنتظر نزع الحجرِ من فمي لأُكملها من جديد.
وكثيرٌ من الكلمات العالقة الممنوعة، قد بدأت بالتكاثر في قلبي.
عروق يدي التي قطّعها الشوق، وشرخٌ في القلب وصداع،
وحجرٌ ملحي، ونصف ليمونة أداوي بهما جراحي.
هذا كل ما أملك يا صفية الوجهِ، فاطلبي الحبَ من غيري.
آه كدّت أنسى...
أملكُ حكماً بالإعدام إن فكرتُ في حلمي.

الفهرس	رقم الصفحة
١- ليلة في دمشق	٣
٢- يوتيوبر	٨
٣- حين يُزهر السرو	١٣
٤- وليمة موت	١٦
٥- مظاهر مزيفة	٢٠
٦- البطاقة الذكية	٢٥
٧- تحت خط البشر	٢٨
٨- حليب مر	٣١
٩- ملح مبارك	٣٦
١٠- سبع دقائق وعشرون ثانية	٤٠
١١- القتل الرحيم	٤٤
١٢- دفتر يومياتي	٤٩
١٣- ومن الحب ما هدى	٥٣
١٤- منزل ديفيد	٥١
١٥- قسم شديدي الخطورة	٦١

١٦- الدنيا أمي	٦٦
١٧- اللقاء الأخير	٦٩
١٨- إسلام وفوبيا	٧٣
١٩- الجوزاء	٧٦
٢٠- رابطة الحيوانات	٨١
٢١- الفاشل المتفائل	٨٤
٢٢- الجزيرة المفقودة	٨٩
٢٣- كفن أسود	٩٥
٢٤- ساعتان	٩٩
٢٥- حكاية جدي	١٠٤
٢٦- اكتئاب	١٠٦
٢٧- الهروب	١٠٨
٢٨- ما العجب	١٠٩

تحت خط البشر

أنا طيفُ ابتسامة وآخر الدمعات، أنا الذي حمل وطنهُ شامخاً فوق أعتاب الأرض، فلاكته الدنيا ولفظته لاجئاً.

أنا حرفٌ قد تعلقت به الآمال فلم يجد كلمةً تحتويه، ولم يجد عاقلاً يسمعهُ.

أنا ابن طفولة مفقودة بين زجاج السيارات وإشارات المرور، أنا ذلك الطفل الذي مازال يبكي إن لم يأخذ نصيبه من الحلوى، وذلك الرجل الذي حُمِل شهيداً ألف مرة.

أنا جزء من رواية تآكلت أطرافها فوق رفوف المكتبات، وأنا وحدي مليون كلمة.

الإهداء

جروحٌ وخيباتٌ تملأ حياتي، فماذا أهديكم؟

...

هذهِ بعض جراحي أُهديها لمن يقرأ الآن.

مصطفى المفتي

2022

ليلة في دمشق

دخل متكئاً على صوت قرقرةِ معدتهِ، يحمل بيده أثر غبارٍ خلّفهُ اكتظاظ النوائب، وعلى رقبتهِ المتدلية قد طبع الزمان صفعتهُ.
نظر في عيون أطفاله الجوعى، يقلبون أبصارهم عن يمينهِ وشماله، لا يجدون ما كانوا لهُ يأملون.
لم تكتفِ السنوات من لطمِ مشاعره بعد، لتُعيده من جديد حائراً بلقمةِ أطفاله الذين شُرِّدوا بسجنهِ خمس سنين في غياهب السجن حين اتهم ظلماً بسرقة مستودعاً كان يحرسه.

في منزلهِ، وبعد أن غَربت آخر شمسٍ لأيلول، وقف يمزق أمام نظرات زوجتهِ ما تبقى من كرامته المندثرة تحت أقدام الطوابير.
تسألهُ بابتسامةِ مهزوم: ألم تحصل على الخبز اليوم؟
فجيب بحروفٍ عقيمة؛ ولم أجد عملاً أيضاً.
تبتسم الزوجة في وجهه وتشكر الله على سلامته؛ وتحمدهُ بأن أعادهُ إليهم ولم يغب كغيبتهِ السابقة، وتعاود تهيئته من جديد بلباس الصبر

الذي اعتاد أن يتكلل به معها.

يدخل على ابنه الأكبر الذي قد بلغَ العاشرة من عمره، وما زال رقيد الفراش دون حراك، يمسح على رأسه ويحدثه، ويرفع يديهِ للسماء داعياً وراضياً.

طُرق الباب، تلك الضربات الخفيفة المتتالية قد اعتاد عليها وما زالت تربكهُ كلما سمعها.

صاحب المنزل خلف الباب يسأله أجرة الشهر فقد حان وقتها، ذلك المنزل القديم الذي لا يصلح لسكن البشر، لكنه كان راضياً به لرخص أجره، يكمل صاحب المنزل حديثه عن غلاء المعيشة، وبأنه بأمسّ الحاجة للمال.

ينظر إلى بطنهِ التي تتراقص مع أنغام كلامه ويبتسم في وجههِ، يطلب اعطائه مهلةً قليلة لتدبير المال، وكعادته يكمل صاحب المنزل محاضرته الدورية عن التزاماته ومصاريفه ويفتح باب سيارته الفارهة وهو يدمدم بكلماتٍ تزلزل بقايا الصبر عنده.

فيصمت ويحتسب ويغلق بابهِ ويلتفت لزوجته مبتسماً، فتربتُ على كتفهِ وتدعو الله رزقاً حلالاً وفيراً وفرجاً قريب، وتطيل ابتسامتها في وجه زوجها لعلها تخفف عنه عبء الحياة.

يعود لركنهِ يضم أطفاله ويخبرهم أنهُ بخير وبأن هذه الغمامةُ سترحل قريباً وما علينا سوى القليل من الصبر لتجاوزها.
يقاطعهُ ابنه الأوسط يريدُ منه مبلغاً قد طلبته المدرسة لتجديد جريدة الحائط وصور الرئيس القائد.
وتطأطئ رأسها خجلاً ابنته وهي تطلب منهُ دفتراً للموسيقى تدونَ عليه دندنات الأناشيد الوطنية كما أخبرتهم معلمتها.
يبتسم في وجههم ويخرج من جيبهِ بقايا قوته وعرقه ويرفع رأسه طالباً من الله الستر والعافية.

صرخت ابنته مستنجدةً به حين رأت أمها تفترش أرض المطبخ، حمل زوجته وركض للشارع، أوقف سيارة أجرة تقلّهُ للمستشفى.
يحدثه السائق في الطريق عن أسعار البنزين والطوابير المنتظرة

لدورها في شوارع دمشق، محاولاً استجرار عاطفته ليدفع له زيادةً عن أجرته المعتادة، وهو يحدث نفسه عن المبلغ الذي سيدفعه لسائق

التكسي وهل سيبقى له ثمن الخبز الذي أضاع يومه في طوابيره.
يدخل المستشفى، يخاطب موظفة الاستقبال التي انشغلت تحدث صديقتها عن هاتفها الجديد، يُعيد مخاطبتها ثانيةً فتصرخ في وجههِ (لقلةِ ذوقه)؛ وتقول: ماذا تريد؟
يتشكرها لحسن سماعها ويشرح لها حال زوجتهِ، فتدفع به لغرفةِ أخرى.
يدخل إلى الطبيب، وبعد معاينتها تخرج الممرضة تمد يدها تجاهه وتقول: (البشارة)، زوجتك حامل.!!
يُخرج ما تبقى من جيبه ويضعُهُ في يدها، فترمقه بنظرة ازدراء لقلة ما أعطاها، هي لا تعلم أنهُ ثمن خبز أطفاله وأنهُ كل ما يملك.

تخرج زوجتهُ، تنظر له وتحاول التكلم بشيء لعلها تخفف عنه هذا الحِملُ الجديد، فيقبّل جبينها بابتسامة رضى ويطمئنُها بأن الله معهم

وسيجازيهم صبرهم خيرًا وبأنه قد أرسل لهم رزقاً سيسوقهُ إليهم هذا المولود الجديد.

يوتيوبر

من قال إنّ الصّور لا رائحةَ لها، انظر إلى صورتك وأنت صغير.. ستشمُّ رائحتك القديمة، وسينبتُ الريحان في دروب ذاكرتك لثواني، أما صورتك وأنت شاب قوي، ستفوح منها رائحة عزة النفس التي ولدت معك وستنتشي فرحاً وأنت تقلب ذكرياتك فيها، أما إن شاهدت نفسك بلباسٍ يغزوه الغبار وحُطام الأبنية ملطخاً بدماء إخوتك، فلن ينبعث منها سوى رائحة ذلٍ وقهر وهوان، ستحاول جاهداً تمزيق هذه الذكريات ولن تستطيع، فهي حيةٌ فيك ما دمت حياً.

قبل أيام وأثناء تصفح كريم للأنترنت، وقعَ نظره على مقطع متداول لأحد الأشخاص وهو يقوم بأكلِ ديكاً كاملاً لوحدهِ مع الأرز الموجود في الطبق، كرهانٍ مع زميلٍ لهُ، كان يأكل بنهمٍ وجشع وبشكلٍ مقزّز، متناسياً أنَّ هناك عوائل لم تذق طعم اللحم منذ شهور، استدار كريمٌ إلى زوجته وسألها: هل

تذكرين طعم الدجاج؟ ضحكَ بهمس حين ابتسمت زوجتهُ، أغلقَ هاتفه وأسند رأسه إلى وسادتهِ لينام.

لاحقاً وفي ذلك الصّباح خرج كريم من المخيم الذي يضمه وعائلته إلى ساحة المدينة المجاورة لعلَّ الله يرسل له رزقاً،

كان يرفض الذهاب إلى المنظمات لِما فيها من ذلٍّ ومهانة، ويكتفي بما يسوقه الله من رزقٍ يجنيه بذراعه وعرق جبينه.

حين عودته دخلَ خيمتهُ ينفضُ برعشاتٍ أثر البرد الذي أكل جسده منذ الصباح، وبيده يحمل كيساً فيه بعض الخبز، نظر لطفليهِ.. كان أحدهم يحمل تفاحةً ينظر إليها بحيرةٍ لا يدري كيف يأكلها، أما الآخر فكان يحمل لعبةً جديدة وكان ما يزال رضيعاً.

التَفتَ حوله باحثاً عن زوجتهِ، شاهد أحد الأطفال يركض فرحاً وبيده لعبةً كالتي بيد طفله، أوقفهُ وسأله: لِمَ أنت في الخارج؟ البرد قارص أين كنت ومن أعطاك هذه اللعبة؟..

ردّ الطفل والفرحة ظاهرة في عينيه: قد ذهبت للحصول عليها.. إنهم هناك يحملون ألعاباً كثيرة يوزعونها للأطفال.

في تلك الأثناء شاهد زوجتهُ قادمة، كانت الابتسامة تتربع على عرش وجهها البائس، ابتسم حين رآها.. لم يغازلها كعادتهِ.. ولم يُعكّر عليها ابتسامتها، لكنه نظر إليها بطريقةٍ لم تكن قد اعتادت عليها، أخرجت من جيبها بطاقةً بقيمة عشرة آلاف أي ما يعادل ثلاثة دولارات، ليشتروا بها من متجرٍ محدد، ثم قالت: غداً وأنت قادم أحضر لنا ما تراه مناسباً.

سألها باستغراب: من أين حصلتِ عليها؟

قالت: إنَّ شابّين يجولان الخِيام يسألون الناس أسئلةً، فإن أجابوا بشكلٍ صحيح يحصلون على بطاقةٍ كهذه.

لم يتفوه بأيِّ كلمةٍ، خرج من الخيمة باحثاً عن الشابّين لمعرفة ما ورائهم، شاهد تجمهراً من بعيد فقصدهم، وقف جانباً دون أي كلام، شاهد النساء والرجال يلتفون حول أحدهم يريدون أن يحصلوا على مقابلة ليربحوا تلك البطاقة، لم تكن تصرفات الشاب معهم تمتّ للإنسانية وكانت تفتقرُ لكلِّ أشكال الاحترام، وفي زاوية أخرى رأى الآخر وكان يحمل بيده مسجل فيديو، يحاول إبعاد الناس بالصراخِ تارةً وبدفعهم تارة أخرى ليبدأ بتصوير مشهدٍ جديد.

تذكر الشاب فور رؤيته، هو صاحب الرهان، بالأمس خسرَ كرامتهُ وهو يأكلُ كحيوانٍ هائج، واليوم يتجول بين الخيامِ

يشتري بأبخس الطُرق والأثمان كرامةً قد دفعنا ثمنها غالياً، فقط ليرفع من اسمهِ على حساب اسمائنا.

عاد إلى خيمته مسرعاً وأخذ البطاقة من زوجته وقال: لِمَ شاركتِ بهذه القباحة، يريدون أن يجعلوا من أنفسهم أبطالاً على حساب كرامتنا، وهم لا يرجون منفعةً،

ولا يبغون وجه الله بذلك.

قالت: لم أكن وحدي ولم أخسر كرامتي، كانوا يسألون أسئلةً خفيفة فأردّتُ أن أشارك، ما الضير في ذلك؟

لم يجبها وخرج مسرعاً إليهم واقتحم تجمهرهم وقال: أنا أريدُ أن أشارك في برنامجكم ولكن بشرط، أنا أسأل وأنت تجيب، ضحك الشاب وقال له إنّها جديدةٌ عليّ لكني سأفعل.

وقف الشاب أمام الكاميرا بعد أن سألهُ عن اسمه وقال:

معنا الأستاذ كريم سيكون هو من يسأل وأنا بدوري سأجيب عليهِ.

نظر كريم في عيون الشاب وقال: في وضعنا هذا وضمن هذه الحرب والظروف التي مررنا بها، برأيك ما هو أغلى شيء تبقى عندنا وعلينا الحفاظ عليه؟

ابتسم الشاب ثم قال بلهجة منتصر " الكرامة "

فردّ عليه كريم بكل سخرية: مبارك لقد ربحت معنا، خذ هذه البطاقة فيها عشرة آلاف واشتري لنفسك كرامةً تقي بها ما تبقى من ماء وجهك.

إن أردت وجه الله في تصرفك فلا تُحرج الناس أمام كاميرتك هذه، أم إنك تريد التفاخر بما تصنع وتجعل من نفسك بطلاً، فإنك والله لن تنالها على حساب كرامتنا.

حين يُزهر السرو.

رائحةُ الأرضِ التي تربّيتُ عليها، بقايا قلب ماتَ في العشرين من عمره، عقلي التّائه بين الحنين وذكرياتٍ عجاف، تجاعيدُ وجهي ومشيبُ رأسي، عُكّازتي التي حملتني خمسين عاماً، جميعهم تركوني في أول الطّريق حين أبصرتُ طيفَكِ يا فاطمة.

خمسون عاماً، ما زلتِ عالقةً بين ذكرياتي على هذا الطّريق.

شَابَ الطّريق كما شابت ذاكرتي، لَكني لم أملُّ ذِكراكِ لحظة.

الجميل في ذاكرتي يا فاطمة أنها اعتادت أن تقتادني لهذا الطريق الذي واعدّتني فيه قبل رحيلي، لم أفهم كلامكِ حين قلتي إنَّ لقائنا حين يُزهر السرو.

أيزهر السروَ يا فاطمة؟

حتى شجرة السروِ تلك ملّت الانتظار ورحلت تاركةً خلفها رماداً يشتعل في قلبي مع كل شهيق.

لماذا أتيتِ الآن؟

= جاءني عيد الميلاد ولم تأتِ.

السرو في بيتنا امتلأ بالزهر والأجراس، فتّشتُ عنك بين الحضور وبين الغيّاب، بين الزهور، بين طيات هذا الطريق، لكنك لم تأتِ.

أكلَ الطريق من قدماي، ونهشت لحمي ذكرياتك، بقيتُ وحيدة، وحيدةٌ كهذه الصخرة التي مازالت تحمل حتى الآن شوقي لك.

الروحُ تعبت يا مالك، لم أستطع مقاومتهم أكثر حين أرادوا تزويجي.

كنتُ في السابعة عشر من عمري ولم يكن الخيار بيدي،

وكنتَ في العشرين من عمرك، لم تستطع فعل شيء حين أُجبرتُ

على الزواج.
أرسلتُ إليكَ ولم تأتِ، لم تكن بجانبي، بحثت عنك طويلاً لم أرك، أنتظرُ أياماً قالوا فيها إنك ستعود.
وعدّتني إنك سترجع حين ينضج التين على سفوح مجدل شمس، نضجَ التين خمسين مرةٍ، واشتعلت أزهار السروِ في ركن بيتنا خمسين مرة.
رحلتَ أنتَ كما رحلت مجدل شمس، تلهفتُ لسماعِ خبرِ عودتك حين عادت سيناء، لكنك لم تأتِ.
- آهٍ يا فاطمة...
الرصاصةُ التي اخترقت صدري لم تقتلني، أيقتل الأموات يا فاطمة؟
أنا ميتٌ مذ سمعتُ خبر زفافكِ وأنا في صفوف المقاومة، كيف أعود لقريةٍ لستِ فيها، كيف أسير في طريقٍ لستِ رفيقتي فيه.
عدتُ حين رأيتكِ بالأمسِ تجمعين الزهور بثوبكِ الأبيض هذا، عيناكِ لم تذبل، مازال الجوري يغطي مساحاتٍ شاسعةٍ من وجنتيكِ.
ما زلتِ جميلةً كما كنتِ آخر مرةٍ رأيتكِ فيها عند الصخرة.
تلك الصخرة يا فاطمة أصبحت ملجأ دموعي عند الاشتياق، ومسكن روحي حين الحنين.
انتظرت السّاعات عندها، أبحث عن أي شيء يدلني عليكِ، لعلَّ الرياح تركت بعض عطرك، بقايا كلماتٍ أجدني بين حروفها،

بحثتُ طويلاً يا فاطمة ولم أجدني.
= ما الذي جاء بك إلى هذا الطريق بعد هذا العمر يا مالك؟

-أنا لم أفارق هذا الطريق يوماً، أتعبني الموت يا فاطمة ولستِ معي. كنتُ أراكِ في كل شيء، في قطرات الندى عند كل صباح، في أفقِ الشمس حين المغيب، أنام على تراتيل ذكراكِ وأصحو على أنينِ فراقك.

وأنتِ ما الذي جاء بكِ يا فاطمة؟

= رائحتكَ التي نبشت قبور الياسمين في قلبي وتوغلت في طيات ذاكرتي فأنعشتها وأعادت لي عمراً ضاع مني ولم أستطع حتى البحث عنهُ.

-هل هؤلاء أبنائكِ يا فاطمة؟

= أجل... جاؤوا يحملونني إليكَ حين أتعبتني الحياة ومللتُ الانتظار...

وأنت هل تزوجت يا مالك؟

- ألم أقل لكِ يا فاطمة إنَّ السروَ لا يزهر!

وليمة موت

كانت ضحكاتهم تملأ الفراغ، أختلس النظر إليه من نافذة المطبخ، لم يكن يُعجبني.
في الجانب الآخر من ساحة المنزل كان يجلس من سرق قلبي لسنوات، يرفع رأسه بين الحضور لعله يراني.
قبل ثلاثة أسابيع كان زفافي من هاني، أُجبرت عليه، كما هي عادات قريتي.
كنت أعدّ لهم الشاي بعد أن انتهوا من الوليمة التي دعا عليها هاني شباب الحي عقب صلاة الجمعة الأولى من تموز.
تموز هذا العام أتى برياحٍ سموميه كأنها نفحاتٌ من جهنم، محملة بغبار القصف ورائحة البارود.
عمّ الصمت لثوانٍي، بدأ الناس بالركض يميناً ويساراً.
صوت الصفير يقترب أكثر وأكثر، لم أعِ للحظاتٍ ما الأمر
سمعت صوت هاني يصرخ باسمي من الصالة ثم قُذفت لأمتارٍ داخل المطبخ.
الجو حارٌ جداً، والهواء كاد أن ينفذ من كوخي الصغير تحت طاولة الطعام.
لا أدري كم لبثتُ هنا قبل أن أستعيد وعيي، يدي اليسرى عالقة تحت حجر الجدار المنقض، أما رأسي فقد أصبح بين ركبتاي ومازالت الطاولة تضغطه للأسفل وعظام ظهري تكاد أن تتفكك.
أسمع صوت رجال ينادون لعلهم يجدون أحد الناجين من الصاروخ

الذي نزل بالقرب من المنزل.
كنت أصرخ ببقايا قوتي، لكن لا مجيب، حاولت النهوض بجسدي لعل حركة الحجارة التي غطت مكان مكوثي يُسعفني، لكن دون فائدة.
الصمت عاد من جديد لا أدري لعلها ساعة، سمعت همساً غير مفهوم، من ثم جدال بأصواتٍ مرتفعة.
استطعت تميّز صوت هاني، يبدو أنه بأسوأ حالاته، لم يكن يستطع التقاط أنفاسه، لكنه وبصوت مُنهكٍ متقطع كان يُقسم أنه رأني بالمطبخ قبل لحظةٍ من سقوط الصاروخ، سمعته وهو يطلب مساعدتهم لإنقاذي، أصواتهم كانت مألوفة، وكانت كلها تطلب منه الذهاب لسيارة الإسعاف وعدم الاكتراث لمن تحت الركام، إن كان هنالك أحداً فإنه مات بلا شك.
حاولت جمع ما تبقى من هواءٍ حولي في حنجرتي لأدفعه بقوة مع صوتٍ لعلهم يسمعوني، لكن دون فائدة.
حاول الجميع منعه من التقدم أكثر، لكني مع وضوح صوتهم كنت أشعر بأقدامهم فوقي، حاولت تحريك الحجارة، الصراخ، فعل أي شيء يُشعرهم بوجودي لكن دون جدوى.
أراد الرجال الذهاب لإسعاف الغير، حاولوا منع هاني من التقدم أكثر، حاولوا اقناعه بعدم وجود أحداً هنا، كان أكثرهم صوتاً من ملك قلبي وعشتُ بقلبه سنوات، يطلب من هاني الذهاب للمشفى فإن جراحه تنزف بشدّة، ولا وقت عندهم يضيعونه بسحب جثةٍ إن وجدت.
لكنه لم يقبل وطلب رحيل الجميع إن لم يشاؤوا مساعدته برفع الحجارة.
ماهي إلا دقائق حتى عم الصمت المكان، ولم يبقَ سوى تنهدات

وآهات وكتلة وجع تحمل الحجارة وترميها يميناً ويساراً.
استمر هكذا، يصرخ تارةً ويصمت أخرى، حاولتُ جهدي أن أساعد بما أستطيع لكني لم أستطع فعل شيء سوى تحمل الألم.
سمعته ينادي باسمي بصوتٍ متقطع، صرخت بأعلى صوتي:
هاني إني هنا أرجوك أخرجني، ساعدني.
عاد مناداتي ثانية وثالثة كأنه لم يكن يسمعني.
الصراخ أفقدني القدرة على التنفس، أغمضت عيني وقد استسلم جسدي للموت.
حينها رأيت من سكن قلبي يبتعد عني وصوت ضحكاته تملأ المكان، وكان كلما ابتعد أكثر نظر إليَّ وارتفع صوت ضحكته أكثر.
أعادتني لمكاني حركة الطاولة التي فوقي، كان هاني قد وصل لها، بدأتُ أرفع بجسدي تلك الطاولة التي أنقذتني من ردمٍ قاتل، بدأ بعض النور يخترق أكوام الحجارة وبدأت أشعر بأنفاس هانّي المتقطعة فوق طاولتي.
استرجعت قواي وضغطت بيدي اليمنى الحجر المرتكز فوق يدي اليسرى واستطعت إبعاده وتحرير يدي، مما أعطى هاني إشارة التأكيد بأني تحت الركام.
صرخ باسمي وصرخت باسمه وطلب مني أن ابقى مكاني ولا أحرك شيء حتى يحمل أكبر حجر على حد قوله.
ماهي إلا دقائق حتى دخل الهواء صدري المختنق، وأبصرت عيناي من جديد آخر أضواء الشمس قبل غيابها.
وابصرت أيضاً الدم الذي كان يغطي كل ما حولي.
مد يده حاول سحبي من تحت الطاولة ساعدتني أقدامي السليمة

بالنهوض والخروج من تحت الطاولة.
نظر إلي بعينٍ نصف مغلقة وابتسم وسند رأسه على ركبتي.
كان جسده ينزف من كل جانب، لقد أخرجني من بين أضراس الموت ببضع نبضاتٍ متبقية في قلبه.

مظاهر مزيفة

صورٌ في كل مكان، رائحة فرح تغزو أرجاء بلدتي الصغيرة، شعارات متناثرة هنا وهناك، كلٌّ منها ينادي بخدمة سكان البلدة.

آخر إجازة لي كانت في منتصف الشتاء الماضي، الشارع المؤدي للبلدة كان عبارة عن حفرٍ متلاحقة، وحجارة متناثرة ولا شيء يضيء دربنا هذا إلا ضوء الشمس أو القمر ليلاً.

أما الآن فلم يتغير فيه شيء، سوى أنّ شمس تموز جعلت منه أرضاً غبراء يابسة.

وصلت المنزل مستقبلاً والدي بوثيقة التخرج، ملتقطاً ضحكاته المتطايرة فوقي، وها هي زغاريد أمي تسبقها لباب المنزل وقد جهّزت سكينها وعنق الديك البائس لتفي بنذرها حال دخولي المنزل.

يافطةٌ كبيرةٌ تتوسط الشارع أمام بيتنا أوقفتني، إنها صورة رئيس البلدية! يبدو عليه الوقار، هل أوفى بوعوده؟ سألت والدي، فقال:

لقد رشّح نفسه لانتخابات إدارة مجلس البلدية ثانيةً، دون أن يصلح حتى نفسه، لكني أعتقد أنّهُ سينجح، أدخل الآن وسنتحدث.

في البلدة يوجد مركز طبٍ بيطري واحد، وقد كان رئيس البلدية قد وعدني منذ أربع سنين عندما حصل على أغلبية الأصوات أن أصبح حال تخرجي مديراً لهُ، والآن ها قد أتت الفرصة المناسبة للتحدث معه في هذا الشأن.

في صباح اليوم الثاني جهزت نفسي للذهاب إلى خيمة رئيس البلدية لأبارك له ترشحه وتذكيره بوعده الذي قطعه على نفسه، خاصةً إنني الوحيد في البلدة الذي أحمل شهادة جامعية في هذا التخصص، حتى إن مدير المركز البيطري الحالي من خريجي المعهد الزراعي، وقد ساعده رئيس البلدية منذ عامين لهذه الوظيفة.

لحسن حظي لم يكن لديه الكثير من الناس، حين رآني وقف مُرحِباً ومهنئاً تخرجي، وبدأ بصوته العالي بالترحيب بي وتعريف الحاضرين عني.

لم استطع إخفاء فرحتي يومها، فقد قال لهم "هذا الدكتور أسامة ابن بلدتنا" وكان يربت على كتفي كعلامة فخر بما أنجزته.

جلست قليلاً بين الحاضرين وقبل مغادرتي قمت بتذكيره بِمَ وعدني به في نفس هذه الخيمة منذ أربع سنوات.

تنحنح ثم ابتسم وقال: نعم، نعم، إن شاء الله.

رأيت أبي عند خروجي من الخيمة وقد ارتسمت على وجهه علامات الاستغراب من تواجدي، فهو يعرفني؛ لا تشدني هذه الاجتماعات وهكذا مناسبات.

سألني عن سبب وجودي فشرحت له ما كان بيني وبين رئيس البلدية فقال:

يابني هذا رجلٌ كاذب ألم تعتد عليهِ، ألا ترى حال بلدتنا، ألا ترى حال الطريق في بداية البلدة، منذ أن أصبح رئيساً للبلدية ونحن نطلب منه تعبيد الشارع ولم نأخذ منه سوى الوعود الفارغة، لا تنتظر منه شيئاً يا ولدي، لا تنظر إلى بذلته الفارهة ومركزه المرموق، إنه فارغ لا يمتُّ للأخلاق بصلة وكما يُقال ((يلي ما تزينوه عروقه ما تزينوه خروقه))، وهذا الرجل لا خير فيه.

قاطعته قائلاً: إذا لِمَ تنتخبونهُ رئيساً لبلدتكم إن لم تكونوا تثقون به وترونهُ أهلاً لذلك؟

ضحك والدي ثم قال: وهل رأيت شعباً يختار يا بني؟

ما هي إلا أياماً قليلة حتى انفجرت خيمتهُ بالمباركات والتهاليل فرحاً بفوزه لدورة ثانية، واحتشدت الناس حوله يهنؤون ويباركون.

احسست يومها أن أبي لم يظلمه أبداً لِما رأيت منه من تعالٍ وكِبَر، لكنني اخترت التأكّد بنفسي.

انتظرت حتى فرغ مجلسه تقريباً فذهبتُ إليه مباركاً، لم يربت على كتفي!

حتى إنه لم يقل لي تفضل يا دكتور أسامة! اكتفى فقط ب" اِجلس".

تحدثت معه مرة أخرى من أجل الوعد، فقال بكل برود: حسناً سأحاول مساعدتك بوظيفة ما.

حين عدتُ للمنزل منكسراً، أحسست بكلمات أبي تطرق أبواب مسامعي، أحسست بها تتمزق أمامي لتنتشلُني مما أنا فيه، نظراته إليَّ كانت تعاتبني بصدق وتساندني بكلِّ قوة، حاول تزويدي ببعض الصبر فما زلت في بداية طريقي، لكن حاجتي لتلك الوظيفة كانت تقتلُ أي صبرٍ فيني.

بعد عدة أيام أخبرني والدي إننا سنسافر غداً إلى المدينة لمقابلة صديق لهُ كانا معاً في الخدمة العسكرية، وهو الآن موظف في دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل.

أحسست بانكسارٍ ثانٍ حين رأيتهً غارقاً بين الأوراق والمصنفات، رجلٌ بسيط قد أكل الدهر عليه وشرب، لكن استقباله لوالدي كان عظيماً بعفويته وظاهر شوقه، جلس معنا على كراسي خشبية وأحضر لنا الشاي وبدأ بسماع والدي وهو يعرفه عليّ ويطلب مساعدته في تأمين وظيفة لي في البلدة أو في البلدات المجاورة، ابتسم وقال إن شاء الله.

أنا الآن في المركز البيطري لبدتنا مديراً له باستحقاق شهادتي، وما زلت أنتظر تعبيد الشارع، وما زالت كلمات والدي تصدح في أذني" يلي ما تزينوه عروقه ما تزينوه خروقه"

البطاقة الذكية

لا شيء يضاهي روعة الصباح، الشمس قد تسللت معلنةً قدومهِ، رغم إنّ هدوئهُ قد تلوث بأزيز القذائف، وما عدنا نميز بين رائحة البنِّ ورائحة البارود، لكنهُ ما زال يحمل بين طيتهِ أملاً وردي.
منذ أيام قد أوصتني زوجتي أن أبتاع بعضاً من الجرائد، ظننت أنها اشتاقت لمناقشة الأخبار معي كما كنا سابقاً، وحين سألتها أيّاً من الجرائدِ تطلبين قالت: لا يهم، لكنّي أريد عشرةَ فزجاج المنزل متّسخاً جداً ويلزمني الكثير منها لتنظيفه.
لم يعد نظري يساعدني كثيراً على قراءة الجرائد، لكني رأيت أن أُنعش هوايتي بقراءة إحداها وأنا أشرب قهوتي الصباحية كما كنت قبل أعوام مضت.
صفحتها الأولى كانت دائماً تثير عندي رغبةً بشتم أي شيء حولي حتى زوجتي؛ حين تقرأها بصوت عالٍ، لذلك كنت أهرب منها لمواضيع تتوسط صفحاتها، لكن هذه المرة قد شدّني عنواناً قد أخذ الصفحة الأولى كاملةً.
(الحلول البهية والحياة الهنية تلك أهداف البطاقة الذكية).
ما شدني أكثر إنَّ ذلك المقال يتحدث عن بدأ مشروعٍ سيقلب حياة المواطن السوري، ويجعل جميع متطلباته من الموادِ الغذائية حتى المشتقات النفطية تأتيه عبر تلك البطاقة الذكية.
نعم، الآن يمكنني أن استمتع بقهوتي وأن أقنع ولدي بالعودة وأنا

أزف لهُ هذا المشروع العظيم الذي لم يسبقنا عليه أحدٌ من الدول.
لم استطع إلا أن أُشارك زوجتي هذا الخبر، فصرخت لها:
- تعالي يا خديجة واسمعي، لقد قرأت أنهم سيعملون بتطبيق مشروع البطاقة الذكية، لن أضطر بعد اليوم للوقوف في طوابير الخبز والغاز وأن أنتظر دوري أياماً لأحصل على بضعِ لتراتٍ من البنزين.
ضحكت طويلاً وقالت: يا رجل ألهذا ناديتني، أشرب قهوتك بهدوء وابتعد قليلاً عن حدّةِ الشمس كي لا تؤذيك.
شتمتها في سري، ودعوت الله أن تكتفي بتلك الكلمات وأن تكفّ عن تشاؤمها حتى لا تفسد الأمر كعادتها.
حملتُ هاتفي النقال وأرسلت لولدي رسالةً ليتصل بي عند انتهاء عمله.
وما هي إلا ساعاتٌ قليلة حتى عاود الاتصال بي، وما إن سمعتُ صوته حتى قلت له: البشرة يا ولدي، لقد انتهت مشاكلنا ولم يعد ينقصنا شيءٌ بعد اليوم، هيا يا ولدي قد حان موعد رجوعك.
صمت قليلاً ثم قال: ما الأمر يا أبي... لا أعرف ماذا تقصد، ماذا حصل؟
شرحت له كمية النّعم التي ستأتينا من وراء تلك البطاقة الذكية، وبإذن الله سيتوفر كل شيء.
عاد للصمتِ ثانيةً ثم تنهد وقال: يا أبي، وهل بقي في سورية مشتقاتُ نفطٍ لتوزيعها عليكم، يا أبي إنَّ الطوابير قد ملأت دمشق والنقص قد بلغَ كل شيء، عن أي عودةٍ تتحدث وأنا أناشدكم منذ أعوام أن تهاجروا وتلحقوا بي، ثم انقطع الاتصال ولم استطع إقناعه بشرحٍ مفصل.

قبل العصر بقليل جاءني جارنا لممارسة هوايتنا في لعب (الطاولة)، منذ أربعون عاماً نمارس هذه العادة لكن اليوم استثنائي وسأنتصر عليهِ نصراً ساحقاً لا ينساه أبداً.
لم أشأ إخباره بالإمر في بداية لعبتنا كي لا ينسِبَ هزيمتهُ لتفكيره بهذا الأمر العظيم، فصديقي هذا ضابطٌ متقاعد، وهو بارعٌ بنسبِ هزائمه لأسبابٍ غير المباشرة.
وبعد أن هزمني ثلاث مراتٍ متتالية، قلت له أن تفكيري بعيدٌ كل البعد عن هذه اللعبة، وبأني منشغلٌ بأمرٍ أهم بكثير من النردِ وحجراته.
وبعد إلحاحٍ طويل أخبرتهُ بذلك المشروع الهائل الذي سيبدأ العمل به قريباً.
نظر إلي بتعجبٍ وقال: ومتى قرأت ذلك؟
أجبته وأنا أحمل الجريدة بيدي، اليوم خذ واقرأ بنفسك.
تنهد هو الآخر وقال: يا أبا خالد، لم يبقَ شيء الآن! عن أي خبز ونفطٍ تتحدث، ها هي بطاقتي في جيبي لقد استخرجناها من مديرية التموين سوياً إلا تذكر؟
كنا سابقاً نحصل على ما نريد وإن زاد ثمنهُ قليلاً، أما بفضل هذه البطاقة لم نعد نحصل على شيء؛ فالكبار لم يبقوا لنا شيء، أما هذه الجريدة التي تقرأ منها فهي منذ ثلاث سنوات، هذه البطاقة تحتاج للكهرباء والأنترنت كي تعمل، إلا يجدر بهم توفيرها أولاً.

تحت خط البشر.

مضى خارجاً مع أوراقٍ وجواز سفر مختوماً بالرفض، و نظراتٍ قد أثقلت كاهلهُ ومزّقت آمالهُ، بعبارةٍ واحدة تحطّم حلمُ سفره للعلاج بعد أن قدّمَ لهم جميع ما يُثبتُ صِحةَ كلامه.

(لقد تم رفض طلبكم)، كلماتٌ قِيلت قبل أن يخرجَ من تلك القاعة التي كان ينتظر دخولها منذ أشهر.

الشمسُ حارقةٌ خارج تلك الغرفة، لكنّ حِرقةَ قلبهِ كانت أشدّ وهجاً، وقف عند الباب يتكئُ على خيبتهِ وسوء حظهِ، مزّق أوراقهُ بعد أن شتمَ دولته التي لم تؤمنْ لهُ مستلزمات العلاج، مما اضطرّهُ لفكرة اللجوء و السفر، وشتم العِلمَ الذي قدمهُ طيلة فترة تدريسهِ في الجامعة دون أيِّ جميلٍ يُردّ إليه، فبلادنا صدّرت العِلمَ حين كان المعلمُ موقراً، و الآن تخسر عُلمائها حين حقّرْت مكانتهم بين العامة، أكمل مسيرهُ بخطواتٍ متباطئة كأنهُ يدوس على قلبه.

أوقفهُ رجلٌ يعمل في أحد المكاتب المجاورة للسفارة، ذلك الرجل كان زميلهُ، لكنهُ اضطر للعمل بعد تقاعده؛ فالراتب لا يكفي لإطعام أبنائهِ والوقوف بوجه مصاعب الحياة.

قال له: ماذا حصل معك، أراك تخرج منكبّاً كأنّ الدنيا حطّت أثقالها على كتفيك، هل رُفضَ طلبك للحصول على التأشيرة؟

تنهد وقال: للمرة الثالثة على التوالي، لم أنسَ أيٍّ من الأوراق التي تُثبت مرضي، حتى أني أحضرت لهم تقريراً من إحدى المستشفياتِ بضرورة السفر للقيام بالعملية، لكنهم رفضوا دون أي مبررٍ لذلك،

حتى الكشف المالي المطلوب الذي كنت قد تأخرت به سابقاً، قدمته بعد أن استدنت مبلغاً لإيداعه في البنك.
رد عليهِ زميلهُ بعد أن ابتسم في وجههِ: يا أستاذ زيد، قلت لك أني أعرف شروطهم للقبول، فلا تهدر وقتك وراء ذلك، أعلم أنك قد استوفيت جميع ما يطلبون من أوراقٍ وما شابه، لَكنّك ذو مظهرٍ لا يناسبهم...
أُنظر لذلك الشاب، أقسم إنهُ سيأخذ التأشيرة حتى وإن لم يستوفِ شروطهم، يكفي أنهُ قد أطلق شعره وجعله كقوس قزح متموج الألوان، أما قطعة الحديد تلك التي علقها في أذنه وأخرى تحت شفتهِ فهي كافية لسفره حتى دون تأشيرة.
انظر لتلك الفتاة، وجهها غريبٌ بعض الشيء أليس كذلك؟ إنها تستوفي شروطهم تماماً؛ فهي شابٌ رافضٌ لجسده ويطمح لتغييرهِ.
في تلك الأثناء مرّ بجانبهم رجلٌ يحملُ كلباً صغيراً بيده، كان معه في غرفة الانتظار.
أوقفه الأستاذ زيد وسأله: هل وافقوا لك على التأشيرة؟
فردّ عليه: بالطبع، لقد قدمت جميع أوراقي كمرافق وقد تمت الموافقة على طلبي وأنا الآن موعد السفر.
ما هو الأمر الذي قدمتَ من خلالهِ طلبك، ردّ عليهِ مستفسراً.
فرد عليهِ الرجل: لقد قلت لك... مرافق.
عاود زميله ابتسامته وقال: يا أخي، يقصد أن يسألك مرافق لِمن؟
فقال الرجل: إنّ كلبي هذا قد بلغ عامهُ الثالث وحتى الآن يرفض

التزاوج وهو يحمل جنسيتهم، فقدمتُ له أذناً بالسفر للعلاج، فهنا لا أطباءَ بيطريون مختصّون بالعلاج النفسي للكلاب، وقد تمّت الموافقة على طلبي بأن أكون مرافقاً لهُ في رحلة العلاج هذه.
علت ضَحكَات الأستاذ زيد بعد أن رحل صاحب الكلب، ثم قال: من المؤكد إن كلبهُ لن يستطيع الزواج؛ وهل يتزوج أحدٌ هنا حال بلوغهِ!
امتزجت ضحكاتهم بحسراتٍ ثم مضى كلٌّ لشأنه.
لم ييأس الأستاذ زيد من محاولاتهِ، حاول جاهداً دخول إحدى المستشفيات لإجراء عملية زراعة الكلى فلم يستطع؛ لعدم توفر الإمكانيات الكافية لتلك العملية، قام بتقديم عدة طلبات أخرى لغير دول عربية وأجنبية، يستطيع فيها إجراء العملية فلم يحصل على تأشيرة، وبعد أكثر من عامٍ على محاولاتهِ استطاع أبنائه وبكل سهولة أن يحصلوا على ورقةٍ من المستشفى وأن يستخرجوا موافقة أمنية لدفنه في مقابر المدينة وإقامة العزاء اللازم لهُ، فدولتنا لا تقبل أن يُدفنَ أبناؤها خارج حدودها.

حليب مر

تحت أصواتِ بنادقهم، وبين حطام حجارةٍ كانت تأويه وعائلتهِ، وقفَ ينكث التراب بيدهِ تارةً وبقطعةِ حديدٍ تارةً أُخرى، حتى انتهى من حفرةٍ سقاها بدمعهِ وبدماء كفّيه، عطّرَ جسدهُ برائحة دمائها حين حملها مودعاً جسدها الذي باتَ ساهراً على جراحهِ، ولم يستطع النجاةَ به لإحدى المستشفيات.

الغصّةُ التي عَلِقت في حنجرتهِ أحدثت شرخاً في قلبه، لكن الوداع لا بد منهُ.

في تلك الحفرة وضع آخر صموده، بقايا صبره والكثير الكثير من الذكريات العالقة بين جدران ذاكرته، حين وارى جسدها تحت التراب، مستنشقاً غبار القهر و الفقدان.

مع أول خيوط فجر يومه، نفض كفيهِ ومسح عن خدّهِ دمعةً حفرت طريقاً لها منذ ساعات.

اختلط دوي الانفجار مع صرخات طفلتهِ المتقطعة، وكأن لسان حالها يقول: وما ذنبي... توقظني قذائفكم قبل صوت أمي، وتهجر قلوبكم الرحمة فلا تعطفون.

ركض إلى طفلته وقد زادت صرخاتها حين لم ترَ وجه أمها

الذي اعتادتهُ حين البكاء، حتى إنها لم ترَ أبيها في ذلك الوجهِ الشاحب المغبر.
حاول جاهداً إسكاتها ببعض قطرات ماءٍ كانت قد تبقت في قعبٍ يملأ حوافه غبار الهمجية.
لكنهُ لم يكن ماهراً باحتوائها، ولم تكن هي قد ميزت صوتهِ من صوتِ رشقات الرصاص بين اللحظة واللحظة، ولم يميز أنفها رائحة أبيها من رائحة الموت التي ملأت المكان، فما كان منه إلا أن لفّها بوشاح أمها لتهدأ قليلاً.
لكن الجوع مازال يطرق معدتها الصغيرة، ولم يدخل فمها منذ ساعاتٍ سوى الماء الذي لا يُغني من الجوع شيئاً.
حمل طفلته حين أشرقت شمسَ صبحهِ المدمّىَ وراح يبحث عن شيئاً يقيها قرقرة معدتها، متكئاً على جراحِ قلبهِ وأحلاماً قد دفنها بأمسه، وعلى أنقاض ذاكرتهِ التي تأكلَه ندماً، ففي الأمس حاولت زوجتهُ جاهدة أن يخرجا من الحي بعد أن أعطت قوات الجيش آخر مهلة لمن أراد الخروج، لكنَّ حبهِ لحيِّه الذي تربى فيه وأصدقائه ممن بقوا وحملوا السلاح كانا سبباً لعدم إخلائهِ، "لعلها كسابِقاتها" بعض القذائف ويمضي اليوم.
لم يجد بين الركامِ إلا مجاهدين لم يستفد سوى ببعض الكلمات التي خففَت عنه عبء مصابهِ وألم مفارقته لزوجته،

لكنهم حين علموا أنه يريد الخروج والهروب كما أسموه، منعوهُ وأجبروه على البقاء.
أشار إليه أحدهم بأن امرأة في الشارع الآخر تسكنُ مع أبنائها، لعلهُ يجد عندها بعض الحليب لإرضاع طفلته ذات الشهرين.

واصل التخفي وراء الجدران نصف المهدمة وبين الدهاليز الضيقة للوصول لتلك المرأة، فوجدها تبلغ السبعين من عمرها ولا شيء عندها يصلحُ لرضيعةٍ أن تأكلهُ.
وقف حائراً، يحمل بيده ما تبقى لهُ من دنياه، فلم يجد سوى الخروج ملاذاً لإنقاذ طفلتهِ.
أخذها وذهب بها نحو الحاجز، لكنّ المجاهدين منعوه ثانيةً ولم يسمحوا لهُ بالتقدم أكثر خوفاً على حياته.
تقدم قائداً للمجموعة وقال له:
- أعلم أنَّ مصابك جلل، وإننا هنا لن نستطع مساعدتك بشيء، لكنك لن تنعم إن ذهبت للطرف الثاني من المدينة، فلن تجد ما تريده إلا خلاصك من بعض القذائف.
رد عليه وقد ساءت حالتهِ أكثر، فبعض الجراح بدأت بالنزف من جديد بسبب الشظايا التي تعرض لها حين سقطت القذيفة في بيتهم.
= أنا طبيب، لم أكن أحمل سلاحاً، لم أناصركم يوماً ولم

أناصرهم، لكن طفولةً عشناها معاً بقيت حائلاً بيني وبين تركككم وترك الحيّ، فقدتُ زوجتي بالأمس، وها أنا أحاول الخروج بطفلتي للحياة.

فرد عليه قائد المجموعة: قد أرسلتُ اثنين للوصول للمخزن الذي يقع على خط الاشتباك لإحضار الحليب وبعض المؤن ، لعلهم قادمون.
فقال الطبيب مستنكراً: بعد ذلك الانفجار!؟ أشك بوصولهم، حاولتم مساعدتي وأشكر وقوفكم معي وخوفكم عليَّ، لكني لا أستطيع المجازفة أكثر من ذلك، طفلتي تموت ولن أقف مكتوف اليدين أنتظر موتها، سأعود حين تتعافى بإذن الله.

تركهم وأكمل طريقه، يسير على جراحهِ وعلى أنفاس طفلته التي بدأت تتقطع بسبب الجوع والعطش وكثرة الغبار وبعض الجروح في جسدها.
تم اعتقاله فور وصوله الحاجز العسكري لأن المهلةَ قد انتهت، تحدث مراراً مع قائدهم بأن يتركه يذهب لإحدى المستشفيات لإنقاذ طفلتهِ، لكنهُ أبىَ أن يتركه وانهال عليه بالضرب والشتائم حين عَلِمَ بأنه طبيب، وبأنه كان يعالج المصابين من الأحرار.
في النهاية عرض عليه قائدهم عرضاً مقابل أن يتركه يذهب،

نظر إلى عيون طفلتهِ التي باتت تلفظ أنفاسها الأخيرة، إلى حييهِ وذكرياتهِ ومبادئهِ التي تربى عليها، تذكر قسمهُ وعهده كطبيب، ودمعت عيناه حين تذكر آخر كلام زوجتهِ عندما أوصتهُ بطفلتهم، اشتعلت نيران القهر بصدره ولم يجد نفسه إلا وهو يوافق على ذلك العرض.

وماهي إلا ساعة وعند انتصاف الظهيرة، وقف بجانب عناصر الجيش مبتسماً للمذيعة والكاميرا وقال:

- أشكر عناصر جيش وطني على إنقاذي أنا وطفلتي بعد أن احتجزنا الإرهابيون كرهائن وقتلوا زوجتي بالأمس.

ثم مسح دمعتهُ وضمَّ طفلتهُ، ومضى....

ملحٌ مبارك.

أيقظتني ضرباتٌ قوية على باب منزلي، شابٌ يستنجد بي لإسعاف أخيه الذي طالته النيران.
الدخان كان قد غطى معالم الطريق، وشباب القرية يتراكضون بدلائهم لإخماد ما تبقى من نيرانٍ مشتعلة في أطراف الحقل.
كانت النار قد سببت لحاتم حروقاً طفيفة، أجريت له بعض الإسعافات الأولية وقمت بتنظيف الحروق ولفها بضمادٍ طبي.
في تلك الأثناء كانت النساء تطلبني لرؤية زوجة حاتم،
كان من الواضح إن رؤية زوجها يتخبط وقد اشتعلت النار بجسده؛ قد تسببت بصدمةٍ عصبية وغيابها عن الوعي، مما اضطرني لطلب الإسعاف ونقلها للمستشفى القريب في المدينة.
في الصباح قام الطبيب المختص بفحصها، وتقديم العلاج المناسب لها، وطلب إبقائها في حالة هادئة ريثما تتحسن صحتها.
في اليوم التالي ذهبتُ لمنزل حاتم للاطمئنان على حروقه، كان الوضع على ما يرام، تحتاج بعض الوقت لتشفى تماماً.
في سياق الكلام سألتهُ عن صحة زوجته فقال:
لقد استيقظت في الصباح لكنها ليست بحالة جيدة، ستراها حين الانتهاء من تغيير ضمادي.
حين رأيتها كانت تبكي بصمتٍ وتتأرجح يميناً ويساراً في فراشها، حاولت التحدث معها لكنها لم تُجبني.
اتصلت بالطبيب المختص على الفور وشرحت لهُ ما رأيت، قال لي أنه أمرٌ متوقع ولا داعي للخوف لكن إن استمرت حالتها هكذا يجب

إحضارها على الفور.
بسبب انشغالي بمؤتمر طبي، تغيبت عن القرية لبضعة أيام، وحال عودتي اتجهت لمنزل حاتم لأطمئن على صحته وصحة زوجته.
كانت بعض حروقه قد شفيت تماماً، لكن ثمت حرقٌ في كتفه لم يُشفَ بعد.
طلبت الدخول للاطمئنان على زوجته لكنه قال إن نسوة عندها وطلب تأجيل ذلك.
قلت له:
يجب عليكم عدم إزعاجها هذه الفترة ويُفضل منع الزيارات ريثما تتحسن حالتها الصحة.
ابتسم وقال: ستتحسن بإذن الله.
خرجتُ من المنزل لكن ثمت أمراً يُقلقني، لم يكن صوت النسوة مريحاً، أحسست أن أمراً ما يُحاك في تلك الغرفة.
بعد يومين انتظرتُ مجيئهُ فلم يأتي، مما اضطرني للذهاب إليه ورؤيته.
دخلت عليه؛ فرأيت شيئاً غريباً ملفوفاً حول مكان الحرق، كان خليطاً من الطحين والزيت والبيض، لُفَّ به الحرقُ وتم شدُّها بعصبةٍ خضراء، ولزقَ عليها كيساً صغيراً جداً، فتحت الكيس فوجدتُ ملحاً بداخله.
ما الأمر؟!! سألتهُ بتعجبٍ.
قال إنَّ شيخاً من القرية المجاورة جاء إلينا وقد صنعَ لي هذا الخليط

وقال إنّهُ ملحٌ مباركٌ من صخرةِ الملحِ التي قُتلَ عندها أحد الموالي.
وسيشفى الحرق... هكذا أخبرني الشيخ!!.
غبيٌ أنت... صرخت في وجههِ وقد اشتعلت براكين صدري، ألم أُعطكَ دواء؟!!.
ظل صامتاً، أحسست إنّ ثمتَ كلاماً لم يقله بعد.
سألتهُ عن صحة زوجته فقال: مازالت على وضعها لم تتغير، لكن الشيخ قال إنَّ دخان الحرمل والبخور سيساعدانها على اجتياز محنتها.
لم أتمالك اعصابي حينها وطلبت منه على الفور رؤيتها.
حاول منعي بسبب وجود الشيخ عندها، تركته وتوجهت لغرفتها.
ما إن دخلت الغرفة حتى أصبت بالذهول، كان يحمل بيده مجمرةً صغيرةً وقد وضع بها بعض الجمر والسدر والحرمل، و كان يدور حولها ويُدمدم بكلماتٍ لا تمتُّ لدينٍ بصلة.
ما إن رأني حتى طلب مني الخروج فوراً، فالأرواح لا تحب الغرباء كما قال.
مسكت ذلك الشيء من يده و وضعته جانباً وطلبت منه الانصراف فوراً، لكني فوجئت برفض شديد من جميع من كان حولي من أهل المنزل، وطلبوا مني إخفاض صوتي كي لا تغضب الأرواح التي تساعدهم في شفاء زوجة ابنهم.
خرجت أكلم نفسي عن ما رأيت من غباءٍ مُجتمعً في ذلك المنزل.
ذهبت فور خروجي لمختار القرية لأقص عليه ما حدث علّه يُساعدني، وعندما سمع بوجود الشيخ عندهم قال:
المعذرة أنت لستَ غريباً، سأتركك هنا وأذهب للقاء الشيخ، فرؤيتهِ

بركة، وحضوره بركة لجميع أهل القرية.
الأمر لم يكن بتلك السهولة التي توقعت، فجميع من سمعَ بقدوم الشيخ ذهب لرؤيته، كِبار القريةِ قبل صغارِها.
رأيتهم يقدمون لهُ نقوداً وبعض المؤن وكان يمسح على رؤوسهم ويقرأ بعض الآيات، ويدمدم بتخاريف لا يسمعها أحد، بحجة أنهُ يشُفيهم من السحر والحسد.
وكان يقول لهم إنَّ صدقاتكم هذهِ وأموالكم ذاهبةٌ للفقراء!!.
وقفت بينهم محاولاً التحدث مع الناس ومنعهم من زجِّ أنفسهم داخل هذا الدجل الواضح، لكنهم رفضوا حتى سماعي واستبعدوني من بينهم، ومنهم من نعتني بالجاهل، ومنهم من غضِب مني ونصحني أن أستغفر ربي وأطلب من الشيخ الصفحَ قبل أن يرحل.
لم استطع فعل شيء يومها إلا الانسحاب بهدوء، وتركهم حين رأيت أني الوحيد المختلف بينهم.
بعد أسابيع قليلة وصلني إن يدَ حاتم تحتاج لعمليةٍ جراحية، فقد تعفن الحرقُ ولم يعد يستطيع تحريكها، وبأن زوجتهُ ترقد في المستشفى غير قادرة على الكلام، وقد حصل ذلك الشيخ على أصواتٍ تمكنه من الجلوس على كرسي رئيس بلدية المدينة.

سبعُ دقائق وعشرون ثانية.

أن تُحيكَ ثوباً من رُقعِ الفشل، خيرٌ لك من سِترٍ يصنعهُ الآخرون.

وأن تُطعم صغارك حساء سمكةٍ، ألذّ من شواءِ حوتٍ في شباك الغير.

وكما إن المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، كذلك العاقل لا يضربُ بمِنّةٍ مرة.

ولساعةٍ تحيا فتموتُ مكرماً، أبقى لك من دهرٍ يلوثهُ المراؤون.

فاصنع لنفسك اسماً تعيش بهِ(كما تريد)؛ وإن ابتغيت فوجه الله، فإن رضيت أرضاك ولو كره الشامتون.

مضت تشقُّ طريقها بين كفوفِ المهنئين لها، تمضي للأمام بذاكرة تعدو للخلف، عندما تحطّمت تحت رايات السخرية أولى مقالاتها على طريق الصّحافة الذي اختارته لنفسها.
نظرت بطرف عينها، كأنها رأت في بعضِ الوجوهِ ابتسامة إخوتها، بعد أن أكثروا لها المغريات لمزاولة الخضوع وتركِ تسوُّل أجوبةِ النّاسِ بين ميادين قضاياهم الاجتماعية.
أعادتها ذاكرتها لأولى جولاتها، حين خاضت حرباً مع الكلمات في ساحات الصّحف المحلية، لكنّها لم تبتهج مرةً بمقالٍ لها، تقرأهُ من صحيفةٍ على أبيها الذي ناصرها لوحده.
كان صديقاً وأخاً، معلماً و مُلهماً، ليس سواهُ تلجأ إليه حين الضّعف، وقفت لثواني قبل صعودها المنصة، نظرت في عيون النّاس علّها تجد شيئاً من أبيها بينهم، استذكرت حين وقفت بين يديه تلتقط بقايا

قوّتها، ودّت لو تُسمِعُ كلماتهِ لجميع الحاضرين، حين مسح دموعاً استقرت فوق خدّيها وقال:
- ما بالُ بنيتي تحزنُ لأمرٍ لم يردهُ الله لها؟
نظرت لعيني أبيها اللاتي تستمد منهما عزيمتها وقالت:
-- أُغلِقت الأبواب في وجهي يا أبي، وهيمن عليّ الفشل وقيدني، لا أدري ما السّبب، هل أخطأت التّصرف بأمرٍ ما، أم أني فاشلة وحسب.
مسح على رأسها وابتسم في وجهها وقال:
- كلنا فاشلون إنّ لم نتعلم من عثراتنا، ومن عاش حياته بوتيرةٍ واحدة، لن يهنئ بطعم الحياة، لا شيء يأتي هكذا دون متاعب، ولو كان الأمر بهذه السّهولة، لما أقسم الله مرتين بإنّ " مع العسر يسرا "؛ وتذكري بنيتي إنّ أكبر الأشجار في يومٍ كانت بذرة، وإنّ ريح الفَرَجِ تُضيقُ بصدورنا قُبيل وصولها، لتشرحهُ حين يأمر الله بهذا، فلا تيأسي وافعلي ما أنتِ به ترضين.
أعادتها همساتٌ تسمعها هنا وهناك إلى أيامٍ كانت تطرقُ مسامعها مئات الهُمزِ واللّمز، وتعلو عند أذنيها ضحكات الشّامتون، لَكِنها تعلّمت أنّهُ دواءٌ ينتشلها من سرير العجز والضّعف، ويرفعها درجات في سُلّمِ النّجاحِ، تلك السّخريات كانت لها حافزاً لتقفز فوق العقبات مُتخطيةً درجةً كانت تأخذُ مِنها وقتاً لصعودها.
امتهنت الحرف والكتابة، وتعلّمت من أين تبدأ ومتى تنتهي، تعلّمت إنّ الفاصلة لا تُغني مالم تكن منقوطة، وإنّ القارئ لا يرتوي إلا حين يُبحرُ بين استفهامٍ وتعجب، وإنّ النّقطة إن لم تكن لبداية جديدة فهي استسلام.
لكنّ ذلكَ لم يُسعفها لوضعِ خطوتِها الأولى في إحدى الصُّحف، ففي

بلادنا " طريقُ الألف ميل يبدأ بواسطة ".
وقفت عند منصة التكريم، استدارت تَرمُقُ بعيونٍ كحّلها النّجاح عيونَ الشّامتين، ترتشفُ نصراً من بين أحقادهم.
استلمت درع فوزها، وبعد الشُّكر قالت:
أقدّمُ هذهِ الجّائزة لسكان الأحياء العشوائية، فهم الأبطال الحقيقيون لفلمي القصير هذا.
حين بدأ البرد يطرُق أبوابهم، مع انتصاف خريف العام الفائت، كَلفتُ نفسي بمهمةٍ بعد أن أُغلِقت في وجهي أبواب صُحف بلادي، ولم يبقَ لي سوى عزيمتي أمضي بها لمرادي.
توغلتُ بين منازلهم المتهالكة، عِشتُ بين نسائهم الصّابرات، جلستُ مع رجالهم الذينَ لا ذَنب لهم سوى إنَّهم خُلِقوا في دولةٍ لم تعترف بوجودهم.
عشرات الآلاف هناك، يموتون ببطء، دون أي حقوق، مع كامل واجباتهم باحترام الدّولة ودستورها.
أطفالٌ يحلمون بالذّهاب للمدارس، وآخرون قد مزقت الشّوارعَ طفولتهم، وآباءٌ أنهكتهم ظروف الحياة، يسعون لمستقبلٍ أفضل قبل فواتِ الأوان، ونساءٌ يحلُمنَ بعيشٍ رغيد.
تقدّمتُ بهذا التّسجيل مرفقاً بمقالٍ لأكثر من جهةٍ إعلامية، لَكنّهم قابلوني برفضٍ صارم والبعض اتّهمني بالجّنون وإشعال الفتنة بين أطياف المجتمع، ومع ذلك لم أيأس وقمتُ برفع هذا الفلم مع التقرير لإحدى المواقعِ الإلكترونية الإخبارية.
لم أتوقع نتيجةً كتِلكَ التي حصلت، كانتشار النار بالهشيم غزت كلماتي المواقع الإخبارية وأصبحت حديث ألسُن مقدمي البرامج،

وتلقيتُ عدة اتصالات بخصوص هذا الأمر، لَكنَّ سياسية بلادي كانت سبّاقةٌ "كعادتها"، دارت التّحقيقات حولَ مُرادي من هذا المقال، وأصبحتُ زائرةً يومية لإحدى فروع الأمن، تم حذف مقالي، وأُجبِرتُ على كتابةِ تعهدٍ بعدم نشره مرةً أخرى.
وحينها انتهى الأمر مع فصلي من نقابة الصّحفيين.
هنا أدركت إنَّ النجاح يؤذي النّفوس المريضة، وإنّ الفشل ما هو إلا خضوع والتزام الصّمت.
قدّمتُ لكم في سبع دقائق وعشرون ثانية، مسيرة أعوامٍ من قهر وحرمان لفئة مهمشة في بلادي.
وها أنا الآن أعيش لحظات من كانوا سبب نجاحي خارج بلدي، بكامل الحقوق التي هي أحلامهم، وسأعمل على تحقيقها ما دمتُ على هذا الطّريق.

القتل الرحيم

أخبرني صديقي رامز إنه قادم لزيارتي، كان اتصالهُ بمثابة منشطٍ حيوي لذاكرتي التي نهشتها الغربة، بعد أن غرس الحزن أنيابه في خاصرتي حين هجّرتُ عن بلدي مكرهاً كحال أغلب الشباب السوري.

رامز ذلك الشاب المنفتح المحب للحياة، كنا نطلق عليه لقب "سقراط" لِما لديه من حكمة ورجاحة، لولا عناده في بعض الأحيان وعدم تقبّله لآراء الآخرين.

حين افترقنا آخر مرة قبل خمسة أعوام، كان يقول لي بأنه سيهاجر لبلد يُحترم فيها الإنسان ولديهم من الحرية ما يكفي للتعايش بسلام روحي مع الذات ومع المجتمع، وكنت أوصيه بأن يحافظ على دينه وما تربى عليه من فضائل الأخلاق.

سألتني زوجتي: من يكون هذا الشخص الذي رسم خبر مجيئه ابتسامة على وجهك لم نرها منذ زمن، قلت لها حينها:

هذا صديقي المقرب، قُطعت أخباره منذ مدّة، كان سابقاً لعصره بطريقة تفكيره وعقله الكبير، يُعجبني جداً حين نتناقش، كأنه مخزناً لجميع العلوم، يعرف كل شيء.

لم أعرفه أول مرة، حين رأيتهُ يخرجُ من باب المطار ببدلة سوداء وربطة عنق خمرية، يحمل بيده حقيبة "دبلوماسية" كما كنا نطلق عليها في صغرنا.

الحي الذي كنت أسكن فيه كان من أقدم أحياء المدينة، أغلب ساكنيه من المعمرين، كأنك قد دخلت لدار عجزة كبير، وقد غلبت عليهم العادة بأن يجلسون على عتبات منازلهم يتطلعون لهواء نقي بعيداً عن جدران المنازل.

لم يعجب رامز هذا الأمر، حتى أنه نظر إليهم بفوقية ودمدم بكلمات لم أفهمها.

جلسنا في شرفة المنزل ننتظر الغداء فبادرني بسؤاله عن الحي وساكنيه.

قلت له: منذ خمس سنوات تقريباً وأنا أسكن معهم، لم أقابل في حياتي أُناس مثلهم، متحابّين في ما بينهم ويعيشون بهدوء تام.

فرد عليّ قائلاً: أي هدوء مع كل هذا الضجيج؟ ألا تسمع صوت الصراخ؟

قلت لهُ بأن جاراً لنا مريض وهذا صوت صراخه، لقد اعتدنا عليه.

فاجأني حين قال: لو كان عندنا لما كان هذا حالهُ، كبيرٌ في السن ومريض ويزعج الجيران بصوته، يجب أن يموت!!

ضحكت وقلت له: يا رجل! يموت لأنه مريض؟ إنه مريض زهايمر ويصرخ لأنه لا يتذكر أولاده أو حتى اسم زوجته، هذا كل ما في الأمر.

فقال: هذا هو الأمر بعينه، يا صديقي هنالك ما يسمى بالقتل الرحيم، يستخدمونهُ بعد موافقة المريض وذويه لإنهاء حياة من لا أمل في شفائه.

مالكم كيف تحكمون؟ قلت لهُ وأردفت: أتقتلون من أمره بين يدي الله؟

كيف تؤيد هذه الفكرة وأنا أعرفك ذو عقلٍ راجح ودين سليم؟

فقال: وما علاقة الدين في ذلك، الطب يا صديقي قد يحل مكان الدين أحياناً.

لقد تعلمت في المعهد الصحي الذي درستهُ إن العمل إن لم يكلل بطابعٍ إنساني لن يترك أثراً مهما فعلنا.

فسألته: وأين الإنسانية في إزهاقِ روحٍ قد يحيها الله أكثر مني ومنك؟

فقال: الأمر يا صديقي متعلقٍ بالمرض وتطوراته، فإن لم يبقَ أي سبيل للعلاج فهنا يُعطى جرعةً من دواء أو سم يموت من خلالها أو تقطع عنه أجهزة الإنعاش إن كان يستخدمها، الأمر بسيط.

كنت أسمع كلماته وأنا أكاد أفقد صوابي، كيف تحول تفكيره هكذا؟

قلت له: أعلم إنك تُرجع الأمر إن كان فيه خلاف للدين، فما رأيُ الدين في ذلك؟

فقال: لا تدخل الدين في كل أمر، الدين لم يتحدث عن جميع الأمور، وقد توجد مسائل ينوب عن بت القرار بها الطب بدلاً من الدين.

بدأ يتحدث عن أمورٍ غيرت مسار حديثنا، كأنه غير رامز الذي تربينا معاً ودرست معهُ فيً جميع مراحلي الدراسية، كان يتكلم بأسلوب جاهلٍ يتمسك برأيه دون أي ثوابت إقناعيه، حتى انتهى من كلامه فقلت له:

أهذا ما تعلمته في البلاد التي تحترم الإنسان والتي تقدر الحرية للآخرين؟ بئس ما تعلمت.

الانتحار لا يفرق شيئاً عن القتل الرحيم هذا، أم إنهم علموكم أن الانتحار حرية شخصية، يا صديقي لو أن كل مريض طال شفائه قُتل، لانقرضنا منذ زمن، ألم يقل الله صراحة ((ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكَفرون)).

أين أنت من كلام الله هذا؟

ضحك كأنه يسخر ثم قال: وما علاقة هذه الآية بكلامنا، حين يكون المريض بآخر أيامه ويكون شفائه مستحيلاً فلا راحة له إلا في القتل الرحيم، ولو إن الأمر بيدي لطبقت هذا القرار في جميع الدول.

تغيرت كثيراً يا رامز، قلتها وكانت كلماتي قد جفت في حلقي وأنا أحاول إقناعه بسوء تفكيره، يبدو أن الانخراط في المجتمعات أبعده عن أصوله وعن المبادئ والفضائل التي تربى عليها.

كانت للغربة والوحدة التي عاشها رامز كبقية أبناء جيله من الشباب، وانخراطه بمجتمعات لها عادتها ومعتقداتها الدينية، أثراً واضحاً في تغيّر سلوكه وطريقة تفكيره، لم تكتفِ جامعاتهم بغسل عقولهم فقط، بل تركت فيهم شوائب وأفكار من الصعب جداً إزالتها إلا من رحم الله من العقول التي حافظت على مبادئها وفضائل الأخلاق التي تربت عليها.

دفتر يومياتي

كتبوا في التاريخ أنّ الإنسان يسعى دائما لِما ليس له، ويركض وراء سرابٍ حتى يسقط أخيراً في قبره مجرداً من كامل ما سعى إليه، ولا يحمل معهُ سوى دعوات المحبين إن وجدوا، ولربما شتائم من ظلمهم يوماً، ليبقى له من الدنيا سيرته فقط، والسيرة نحن من نكتبها، ونحن فقط من يقرأها لاحقاً.

ها أنا الآن قد ناهز عمريَ السبعين عاماً، توفيت زوجتي بالأمس، تركتني أصارع الدنيا وحيداً مع بعض الذكريات التي خلدتُّها في دفتر يومياتي هذا.

أخذتني اليوميات إلى أربعين عاماً يوم كنت في مكتمل الشباب، كنت في الثالثة والثلاثين عاماً، كعمر شباب الجنة، فخوراً بما أملك من قوة وصحة، تُحيطني الأصابع والإشارات من كل جانب، جذاباً ومحبوباً لدى جميع الفتيات من حولي، حتى بعد زواجي لم ينتهُ عن مغازلتي في بعض الأحيان.

لقد رزقني الله بامرأة أخذت شطر الجمال، فاتنة كأن الله خلقها دون أشباهٍ أربعين، لكنها امتلكت جميع ما في الدنيا من غيرة النساء لها وحدها.

بحكم عملي كانت النساء حولي أكثر من الرجال، لكني حين تزوجت حاولت جاهداً ألا أجعل شيئاً يعكر عليّ هناء ما رزقني الله بهِ، وأن أحافظ على بيتي وزوجتي وأترك ماكنت عليه أيام العزوبية.

في السابق كنت أعشق النساء، من منا لا يعشق النساء؟

كانت إحداهن ترمي بعطرها بين أنفاسي فأتمايل كشارب الخمر حين خروجه من الحانة، ورغم هذا كله لم أخطأ بحق نفسي وحافظت على اسمي دون أن يقال وراءه (النسونجي).

أعادتني يومياتي لذلك اليوم الذي خرجت به من المنزل ليلاً وشياطين الأرض ترقص في وجهي، الغيرة التي تجعل امرأةً كمحققٍ أنهكتني، هل يعقلُ أنّي تزوجت ضابطاً ولا أدري؟

اتجهت لأحد أصدقائي، كان يعيش وحيداً في منزل وسط المدينة، يومها لم أكن أعلم أنه يوم ميلاده، دخلت منزله الذي كان أشبه ب(ديسكو) صغير.

دخان السجائر شكل غيوماً في فضاء الغرفة، وتمازجت عطور الحاضرين مع روائح الخمور الموجودة على طاولتهم، كانوا ستةً وكنت سابعهم، ثلاث فتيات واحدة منهم تعمل معي في الشركة، أما الشباب فكلهم زملائي.

لم أخرب عليهم فرحتهم بوجهي الغاضب، بل رسمت وجهاً آخراً يحاكي ما هم فيه.

جلست وقد شارف الليل على الانتصاف، انتظرت ساعة تقريباً، لم يرحل أحدٌ!

وحين سألت صديقي قال:

مالك يا رجل؟ غداً عطلة ونحن محتفلون حتى الصباح، أأنساك الزواج احتفالاتنا؟

لم أجبه بشيء وأرجعت الابتسامة لموضعها متجاهلاً تلك البراكين التي تغلي في صدري.

للحظة عاتبت نفسي لإقدامي على خطوة الزواج، وتركي لحياةٍ كنت لا أحمل هماً فيها، لكني فوراً نفضت ما في رأسي من أفكار حين شاهدتهم يتمايلون على أنغامٍ وضيعة، وفي أيديهم كؤوساً قد ملأها الفشل والفوضى، لكن لا فرصة لي للانسحاب.

مضت ساعة أخرى، ومضت أجساد النساء تترامى حولنا حتى وجدت نفسي بين فتاتين، إحداهما أعلم أنها تعشق لفظ اسمي.

بدأت همساتها تضرب أذني، وبدأت رائحة عِطرها تغزو البراكين في صدري فتخمدها، تسللت يدها خلسةً وراء كتفي كأنها أفعى تريد الانقضاض على فريستها.

ترنحتُ و وقفت طالبا الذهاب إلى الحمام، لكن وجهي كان فاضحاً لِما أنا فيه فلحق بي صديقي.

أوقفني وقال ما بك، يبدو أنك غاضب وها قد جاء من ينفض عنك بعض همومك فلماذا ترفض؟

قلت له يومها:

تعلم جيداً أني أرفض هكذا جلسات، ولا استسلم لنفسي وأهوائها، ولا أرمي بروحي لشيطانٍ يتخبط بها يميناً وشمالاً.

أنت ما بك؟ ألا تصحو مما أنت فيه؟ أصبحت في الخامسة والثلاثين وما زلت على ما أنت عليه.

نظراته إلي كنت أقرأ فيها عتب نفسه لنفسه، ولومها لِما هو عليه، لكن النفس الضعيفة تلهث وراء مغريات الدنيا دون التفكر في القادم.

وجدت نفسي في الثالثة فجراً أفتح باب منزلي تاركاً ورائي أهواءً كثيرة ومغريات.

اخترق عتمة الصالة نور وجهِ أهوى الابتسام لهُ مهما كانت حالتي، رغم ما فيه من غيرةٍ ونكد لكنه يبقى الوجه الذي انتظرته طويلاً، وحرمت نفسي من مفاتن الدنيا لأجله.

وجهٌ أحله الله لي، وهذب نفسي للقائه، ثم زرع الفرحة والرضا في قلبي أربعون عاماً.

ومن الحبِّ ما هدى

لم يكن سوى امتثالاً لشهوات شيطانية، كانت تغفو الليالي تحت وقع ضحكاتنا المتعالية، شبابٌ أعطى الله بعضهم الصحة والقوة وأعطى بعضهم السلطة والمال، حتى أصبحنا نسابق بعضنا البعض بالغرور والتكبر.

تناسينا عادات الحي التي تربينا عليها، فلم نعد نعطف على صغيرنا أو نحترم كبيرنا، فقوتنا أعطتنا فارقاً اجتماعياً بيننا وبين من نعيش بينهم، ليتحول الحب الذي في قلوبهم تجاهنا لخوفٍ وتجاهل.

تزوجت في العام الفائت، فتاة أحببتها منذ الصغر، في السابق كانت تبادلني بعض المشاعر أما في السنوات الأخيرة فلم تكن تود حتى سماع صوتي وقد اعترفت لي بذلك مرات، لكن حبي لها كان أقوى من أن يندثر لمجرد رفضها.

أذكر حين أوقفتها عند باب جامعتها في آخر أيام السنة الدراسة، كنت أرى نفسي بمن معي، وكانت ترى نفسها بعقلها واحترامها لعاداتها ومبادئها، في ذلك اليوم قلت لها

إني قادمٌ لخطبتك، وإن رفضتني سيحصل ما لا تطيب له نفسك.

نظرت إلي بعقلٍ وقالت:

حين يعطيك الله شيئاً فأنت أمام احتمالين، إما شاكراً فيزيد، أو ناكراً فتؤخذ بما أنت مالكه، أرجع لعقلك واعدل عمّا أنت فيه، أتحسب أنك ترتقي مكانةً بهمجيتك هذه؟ أو أن الناس يتجاهلونك خوفاً أو غباء، والله غير إنهم يكفون شرك بعقولهم وحكمتهم، حين تفهم كلامي جيداً سيكون بابنا مفتوحاً أمامك لخطبتي.

يومها كانت كلماتها كسهام تدخل قلبي لتنفض عنه غبار الحياة وتعيده طاهراً مملوكاً لله الذي أعطاه القوة والمال.

كلامها أعادني لوصايا أمي وهي على فراش موتها، والتي دفنتها حين دفنت أمي.

حبها أعادني لصوابي، كانت توجهني بنظراتها، رغم كل قوتي التي أتحلى بها من مال وصحة إلا أني كنت ضعيفاً أمامها، حتى بدأت أشعر إنها ملجئي حين هروبي من ذاتي.

كلامها معي وتصرفاتها ونصائحها كانت تعيد هيكلتي من جديد، كنت كصلصالٍ بين يديها تصنعني كما تشاء، حتى منّ الله عليّ بأن أصبحت في بيتي.

كانت تُعيدني للحياة رويداً رويداً، علمتني كيف أزرع الحب بين من هم حولي، وكيف أتخلص مما كنت فيه، علمتني أن ما يعطينا الله فهو لله، وأن القوة في محبة الناس لا في معاداتهم.

زارني أصدقائي يوماً وقد حملوا معهم أفكاراً لتقوية العمل وزيادة أرباحه، لم أكن رافضاً لفكرتهم أبداً فهي صائبة خاصة في هذا الركود القاتل في الأسواق، لكن شيئاً ما كان يخيفني من الخطو معهم في هذا العمل، فما كان مني إلا سؤالها لتلقي النصح والإرشاد من امرأة لم تمارس التجارة يوماً لكنها توقن إن الله سيهديها لو استجارت به.

وفي صباح اليوم التالي وقبل خروجي للعمل أوقفتني وسألتني عن نيتي في هذه التجارة، فأخبرتها أني متردد قليلاً، شيئا ما يمنعني من المضي معهم، فما كان منها إلا أن قالت: هو هدى الله يهدي من يشاء، فابتسمت ومضيت.

مرت أيام ليست بقليلة، وتجارتهم تزدهر أكثر وأكثر، حتى بدأ الندم يشق طريقه إلى قلبي وبدأت ألقي اللوم على زوجتي

وهي ما تزال على قول واحد: إن الله يعطيك ما تستحق، فإن شكرت زادك، وسيعوضك الله خيراً...

لكني كلما نظرت حولي ورأيت الناس يحسبون لهم حساباً وأنا خارج هذه الدائرة، تقتلني الحسرة، وإني كلما نظرت إلى تجارتي التي تزدهر يوماً وتكسد أياماً، وإلى تجارتهم التي أغنتهم وازدهرت أضعاف ما كانت عليه، كنت ألعن ذلك الحب وألعن زوجتي ونصائحها.

استيقظت صباحاً على أصواتٍ لم أعتد عليها، كان الأمن يشكل طوقاً حول متجرهم، وهم يقفون جانباً وقد رُبطت أيديهم إلي ظهورهم، هرعت فوراً لمعرفة السبب، وقفت مع حشود الناس المتجمهرة حول الشَرِطة وهم يفتشون المتجر، حتى ثقب المسمار في الحائط لم يسلم من تفتيشهم، ليخرجوا أخيراً وبحوزتهم كيساً مليئاً بالمخدرات!

مشهدهم وهم يُقادون إلى السجن كان مرعباً جداً لو كنت أحد أبطاله، لكن الله منحني فرصةً لأكون فقط مشاهد، أرى بعيني كيف قُتلوا بما يملكون، وكيف نجوتُ بما أملك، وأحمدُ الله على النعمة التي قطعت أجنحتي وهذبت شرودي وانجرافي وراء شيطاني، لتعيدني لرشدي وصوابي قبل فوات الأوان.

منزل ديفيد

ذلك المنزل الكبير العتيق، يقف وحيداً وسط منطقة شبه مهجورة، بيت قد بُنِيَ على الطريقة الإنجليزية منذ حوالي مائة وخمسين عام في منطقة كانت من قبل مزدحمة، أما الآن فقد هجر سكان المنطقة منازلهم بسبب ما حل بهم من ضرر نفسي وخوف بعد كل حادثةٍ تصيب الحي.

المنزل ما زال واقفاً بقرميده الأحمر متحدياً الزمن وخبث الأجواء وريح التعرية وأنين اللحظات وتقاسيم الأيام المتقلبة، يلفهُ الصمت والهدوء في جميع الأوقات، ليلاً ونهارًا.

في الليل يُشعركَ بالرهبة وربما الخوف و الرعب حين يتكور في هدأة المكان كأنه خائف من نفسه ومن وحشته، دخانٌ يتصاعد من مدخنته مشكِلَةً خيوطاً بيضاء تمتد إلى السماوات البعيدة، على الرغم من عدم وجود أحد فيه.

حكايات كثيرة أحاطت بهذا البيت المهجور، فمنهم من قال أنه بيت مسكون وآخرون قالوا أن جريمة قتل وقعت في هذا البيت منذ سنوات طويلة ولم تتمكن الشرطة من فك لغز الجريمة، لذلك لم يتقدم أحد لشراء هذا البيت الملعون -كما يقولون -على الرغم من أنه معروض للبيع منذ مدة و لوحة "للبيع "ما زالت معلقة على واجهته لدرجة أن حروفها تأكلت ولم تعد مميزةً للغرباء.

فجأة عُرض البيت في المزاد ولم يتقدم للمشاركة سوى عدد قليلٍ

يُعدّون على أصابع اليد الواحدة، كان ديفيد هو صاحب الحظ الذي فاز بشرائه بمبلغ مغرٍ وجذّاب يعادل نصف قيمته الحقيقية في السوق وهو يصيح:

لا يهمني الجن أو الأرواح الشريرة فالإنسان الحديث أصبح أبشع منهم.

قرر ديفيد وزوجته أجراء تنظيفات جذرية للبيت وإعادة طلائه من الداخل والخارج باللون الأبيض للتخلص من قتامة المكان وإزالة الأشجار الضخمة التي كانت تجعل المكان أكثر وحشة.

قال أحدهم لديفيد:

انتبه للغيمة السوداء التي تظلل البيت ولا تفارقه أبداً ولا تنقشع أو تغيب منذ سنوات.

أغرق تفيد في الضحك وهو يعلق:

بالرغم من التقدم العلمي الهائل في زماننا إلا أن بعض البشر ما زالوا يعيشون بأفكار العصور الوسطى.
يقول سكان المنطقة المجاورة بأن هذا البيت كان لكاتب معروف توفى منذ أكثر من مائة عام أو ربما هو الرجل المقتول، فلم يشاهده أحداً منذ وقت الجريمة التي تحدثوا عنها.

ديفيد رجل طويل قليل الشعر وقد غزاه المشيب، عبثي الطباع يردد دائماً ، "أنا أقاوم هذا العالم الغبي بالويسكي الذي يحتاجه الجسم لإزالة ما به من سموم وأوجاع.

بلغ ديفيد من العمر عتيا ولكن فكره ظل أكثر تألقاً من قبل.
كان يشعر دائماً بالسعادة لأنه اقتنى البيت وما زالت مكتبة الكاتب الراحل موجودة فيه وحتى قلمه ومحبرته ونظارته .
حين انتقاله للمنزل مع زوجته اكتشف أن الكاتب ما زال موجوداً فيه وهو يتنقل بين الغرف الكثيرة بدون صوت أو ضجيج، كان يبتسم لهما دوماً، وفي مرة من المرات لوّح لهما بيده ثم اختفى.

كان هو وزوجته يشاهدان الكاتب غالباً في غرفة المكتبة وهو منكب على كتبه ويختفي عند الاقتراب منه، فحاولا الاعتياد على الوضع لأن طيفه لم يكن يسبب لهما أي إزعاج أو أذى، كان مجرد نسمة عابرة لكنها مرئيّة، الشيء الوحيد الذي أزعج ديفيد أن قناني الويسكي كانت تنفذ أسرع من السابق لاسيما أن زوجته لا تتعاطى الخمر .
استغرب ديفيد في صبيحة أحد الأيام عندما دخل غرفة المكتبة، رأى على الطاولة منفضة السجائر ممتلئة، رأى أوراقاً بعضها مكتوبة للتو حسبما يبدو من الحبر. كانت المحبرة ما زالت مفتوحة، عرف أن الكاتب الميت ما زال يكتب على نفس الطاولة في مكتبته القديمة، عندما دقق في الأوراق وجد أنها رواية كاملة عنوانها "حكاية ديفيد في بيتي" أخذ الأوراق واستلقى على الأريكة الحمراء في الصالة

بعد أن أعد كأساً من الويسكي الخالص وبدأ يقرأ ويقرأ، استغرب أنها قصة حياته هو بكل احداثها وأكثر ما شدّهُ أن الكاتب كان يعرف كل تفاصيل حياته هو وزوجته، لكنه عندما بلغ الصفحة الأخيرة وجد قصاصة صفراء صغيرة مكتوب عليها:

"هذه الصفحة الأخيرة من الرواية فقط هي ما كتبته بعد وفاتي، كنت أنتظرك منذ زمن ولكنني متُّ قبل أن تصل، لم اغادر حتى تأتي لأكتب النهاية، نهايتك هنا"
بعد عدة أيام وحين كَثُرت الكلاب الشاردة عند ساحة المنزل، راود أهل الحي شكوكاً حول ذلك، خاصة بأن ديفيد حين جاء للبيت شاهدهُ البعض يحدث نفسه في حديقة المنزل أثناء تنظيفها، وكان يخرج من المنزل يحمل أكياساً فارغة أحياناً وأحياناً أخرى لا يحمل شيئاً، يتجه نحو زاوية الشارع التي وُضِعَ فيها صندوق القمامة يرميها هناك ويعود، وشاهدوه أيضاً في الساحة الخلفية بعد أيام يرقص على أنغام كلاسيكية مادّاً ذراعيهِ كأنه يحتضن أحدهم، ولم يكن معه أحد، فتقدموا ببلاغٍ للشرطة لمعرفة الأمر.

حين دخلت الشرطة كانت رائحة المنزل كريهة جداً ، والأوساخ والغبار يملأن المكان، كان ديفيد مقتولاً على سريرٍ قديم، وحيداً في منزلٍ قد أكل العثّ جدرانه وأصبح مرتعاً للفئران والعناكب منذ مئة عام.

قسم شديدي الخطورة

اليوم سأقضي أول مناوبة لي كطبيب في هذا القسم الجديد، أعتقد أني خائف بعض الشيء.

التغيرات التي طرأت مؤخراً بين أقسام المصح جعلتني في قسم المرضى شديدي الخطورة، لم أزره مسبقاً ولا أعرف عنه شيء، ولم يستطيع أحدهم التحدث عنه بسبب ما فيه من أسرار وغموض، لكني قد تجهزت نفسيّاً لأي طارئ قد يحدث.

دخلت مكتبي وجلست أتصفح كتاباً يتحدث عن الاختلاف بين أطباع البشر والتأثير السلوكي بمن حولهم، أنهيت مع فصله الأول كوباً من القهوة الثقيلة وبعض السجائر.

لكن الكتاب لم يعجبني محتواه كثيراً، يبدو أن الكاتب قد بالغ قليلاً، فقد تعلمت من تجربتي أن الطبيب النفسي مثلاً لن يُصاب بالجنون عند مخالطته للمرضى، وحتى المجانين لن يُشفى أحدهم إن وضع مع أصحاء.

خرجتُ من المكتب قاصداً هواء الطبيعة، مررت بإحدى الغرف سمعت صوت أحدهم كأنه يقرأ من كتاب غني

بالمعاني، لكني حين سمعته يقول اسم الذي معهُ وشدّهِ للانتباه، توقفت لمعرفة أمرهم.

قال أحدهم: لكنك لم تجبني حتى الآن يا ماهر، لماذا يختلف لون وجهي عن لون وجهك؟

قال ماهر: لقد خلقنا الله مختلفين وجعله من ثوابت الكون وقانون يعيش في دائرته البشر، وكما إننا مختلفون في الألوان والأشكال والأحجام، كذلك الألسن.

أنت أسمر، أنا أبيض، وهذا أصهب، لا يشبه أحدنا الآخر.

فرد عليه وقال: وهل لاختلافنا هذا فوائد أو مساوئ؟

فقال ماهر: نعم بالطبع حتى في اختلاف أخلاقنا، سأعطيك مثال.

لو كانت عقولنا متشابهةٌ لما استمرت الحياة، فكلٌ منا له طريقته الخاصة بالتفكير والعيش، ولا يعيب اختلافنا شيء مادام الإنسان على خلقٍ، نحن نساعد بعضنا البعض في مجالات الحياة، ولو تشابهت دوائر تفكيرنا لجف الإبداع واختصرت اختراعات البشرية لحد انعدامها.

فمنذ الأزل حاول الإنسان بتفكيره تطوير الحياة والتعايش بما بينهم من أجل استمرارية الدنيا، وبفضل ذلك وجدت كل علوم الأرض.

منشأ الاختلاف بين البشر نوعان، أما الأول عقل وعلم ورحمة، وأما الثاني فمصلحةٌ وشهوة، ففي الاختلاف العلمي تنمو الطاقات وتتفجر القدرات في أجواء إيجابية، أما اختلاف المصالح على المكتسبات فتسود فيه الصراعات والتمزقات وتصفية الحسابات، مما ينتج عنه هذه الحروب التي تحيط بعالمنا في وقتنا الراهن.

لم استطع وقتها البقاء في وضعي كمستمع والاكتفاء بذلك، طرقت الباب عليهم ودخلت، كانا اثنان يجلس كلٌّ منهم على سريره متقابلين.

عندما ردوا عليّ التحية عرفت من صوت أحدهم إنه ماهر، فقلت لهُ:

هل تسمح لي يا أستاذ ماهر بمشاركتكم حديثكم هذا، في الحقيقة كنت مارّاً بالصدفة حين سمعتكم تتناقشان فشدني الحديث للوقوف.

ابتسم في وجهي وقال مُرحِّباً بك: بالتأكيد يا دكتور زيد.. كيف حالك؟

الحمد لله أجبتهُ... وأنتم؟

فسألني وقتها: ما الذي جاء بك إلى قسم شديدي الخطورة، سمعت إنهم نقلوك إلينا وقد كنت في قسم الإدمان.

فقلت لهُ: لا أعلم، حتى لم يخطر لي أن أسأل أو أعترض، كنت في ذلك القسم متعباً جداً أما هنا فلم أشعر بشيء اليوم، لا أدري.. لعل غداً سيكون أصعب، لكني أشك بذلك فأنتم في القسم اثنان فقط ولا يبدو أنكم تتعِبون أحد.

ضحك ماهر وقال: أنت لن تتعب هنا، لكنك ستتعب حين تفكّر لِمَ نقلوك إلينا.

قلت: ولِمَ أنتم هنا اثنان فقط؟ ولِمَ يطلقون عليكم شديدي الخطورة؟

قال لي وقتها: كنّا خمسة أشخاص، نزيد وننقص، حجزونا هنا وأطلقوا علينا هذا اللقب لأننا كذلك، أفكارنا مختلفة عن بقية من حولنا، حاولوا قمع أصواتنا وجرّنا وراء القطيع لكنّ هذا يخالف فطرتنا، خلقنا الله مختلفين لنصنع شيئاً في

حياتنا، لكنهم يريدون أن يصنعوا منا عقولاً بقالب واحد تناسب أهوائهم، لكنّا لن نقدر على ذلك.

لذا ها نحن هنا، نزيد عندما نصرخ فيسمعون من في الخارج أصواتنا فيتشجعون ليصرخوا مثلنا فيُحجزون، ثم ننقص حين لا يتحمل بعضنا الكهرباء التي تصدح بأجسادنا عوضاً عن بيوت الفقراء.

أعتقد أنك قد أخطأت بشيء ما حتى أتو بك إلينا، فإن أردت البقاء خارج أسوار هذه الغرفة فلا تدخلها مجدداً، لأننا مختلفون وسنبقى حتى تستمر هذه الحياة، فإن أصبحنا يوماً نتشابه بعقولنا وألواننا وألسِنتا، حينها لن ننجز شيئاً وستنتهي الحياة.

الدنيا أُمي

يقولون إن الأم مدرسةٌ والحياة أيضاً مدرسة، وإن تحت أقدام الأمهات الجنة، بل إن الجنة تحت أقدام أمهاتنا وهي الحياة وكل المدارس.

قالوا في الأم الكثير، لكن أحدهم لم يفِ حقها، وهل يُستوفى حقُّ الأم؟

هل يستوفى حق منّ كان سبباً بوجودنا؟ ومن قال عنهُ سيد البشر حين قال: (أمك... ثم أمك... ثم أمك..)

إن كان للعطف عنواناً فالأم، وإن كان للرحمة عنوناً فالأم، وكان للمودّة والحب والفداء والعطاء عنوناً فالأم.

الأم هي اختصارٌ لجميع المعاني الطيبة، وهي المفتاح إلى جنةٍ نسعى إليها في الدنيا والآخرة، وفيها أعظم ما خلق الله ألا وهو قلبها.

لم أشعر بالأمان يوماً كما كنت بين أحضان أمي، تلك التي نسجت من دموع عينيها فرحاً أرتديه وأكبُرُ بهِ، وهي التي زرعت عند فمي ريحاناً فنبتَ حروفاً وأغانٍ.

أتدري يا صديقي ما الدنيا من غير أم؟ هي أن تعيش وحيداً ولو كان الناس كلهُم بجانبك، هي أن تبرد لو كانت الشمس بين أحضانك، هي

أن تجوع لو ملكت مفاتيح العالم، من غير أم يعني من غير حياة، وهل يعيش المرء من غير حياة؟

الأم تلك الشمعة التي أحرقت نفسها لتنير عتمةِ الدنيا لأبنائها، وهي من أفنت حياتها من أجل لحظة نجاحٍ ترا ابنها مكللاً بها، هي تلك التي تزيل جميع الألآم وإن اجتمعت بِك أمراض الدنيا كلها، من غيرها يشتاق لك بصدق، من غيرها يذرف الدمع إن أصابك هم، من غيرها يفرح أضعاف فرحك حين يراك مسروراً، الأم هي روحٌ من الجنة، وهي حدائق الورود التي تزين عينيك.

أما دعاؤها فهو التميمة الباقية إلى الأبد، وكأن دعواتها تُطبطب على القلب الحزين فيفرح، وكأنّ كلماتها بلسمٌ للشفاء.
كيف لا تكون الحياة وقد أوصى بها رب الناس، وخير الناس نبينا الكريم، حين أمرونا ببرها وعلمونا إنّ رضاها الجنة في الدنيا والآخرة.

كيف لا تكون الحياة وقلبها لا تغيره الظروف ولا أحوال الدنيا، وهي العين التي لا تنام إن كانت روحك تأن من وجعٍ ما.

الأم كلمة صغيرة لكنّ معناها لا يتسع له كل العالم، وعاطفة الأمومة هي أعظم الصفات في الدنيا، وذلك لأنّ الأم تتصرف بقلبها أولًا، وتغلبها عاطفة الأمومة على كلّ شيء، فلا تشعر بالسخط على أبنائها مهما فعلوا، ولن يعرف قيمة الأم جيدًا إلا من عاش بلا أم، وجرّب حياة اليُتم، فالأم هي الأمان، ومن يفقد إحساسه بالأمان يفقد كل شيء.

اليوم أكمل عامي الثامن دون أمي، اليوم ذكرى وفاة قلبي، وذكرى انتهاء الفرح، لم أذق طعم الحياة مذ فارقتني، ولم أنعم بطيب العيش

مذ أغمضت عينيها بدموع الوداع حين افترقنا، حين هاجرتُ وتركتها خلفي فأبى قلبي المجيئ معي وبقي عندها.

الآن أنا على قيد الشوق تأرجحني الدنيا يميناً ويساراً كأن بي سِكرٌ،

الفوضى تخنق أيامي فلا يدها تلمس جبيني فينبت الياسمين ولا شفاها تنطق حروفاً أتراقص على أنغامها، ولا فرحاً طرق بابي مذ ودعتني.

اللقاء الأخير

لم يكن معنا في تلك الغرفة المتربعة وسط الغابات الفاصلة بين الحدود السورية التركية سوى شمعة تقتل الظلام الذي أحاط بنا بعد أن التقيت بزيدٍ في منتصف ليلة سفَرِهِ.
اشتدّ النقاش بيننا، كان يريد مني السفر معه وترك ما أنا فيه.
كان دائماً يعيد الكلام نفسهُ على مسامعي، ولم يكن لديّ سوى جوابي الدائم، أن اتركني وشأني فلكلٍّ منا هدفٌ يسعى لتحقيقه.
لكن كلماته تلك الليلة كان لها وقعاً مختلفاً وقبل أن يرحل قال لي:
-يا معاذ نحن لم نُخلق ضعفاء، ولم نُخلق لنكون فداءً لغيرنا، عش حياتك كأنت ليس كما يريدون أن تكون.
لعنة الحرب أحاطت بنا منذ سنين، قد تربينا على غبار قذائفهم وترعرعنا بين حطام منازلنا، لكن لا ذنب لنا بما نحن فيه الآن فلا ترغم نفسك على تحمل مسؤولية لا ذنب لك فيها.
تحرر مما أنت فيه، اترك خلفك أمجادهم المزيفة هذه، انتصاراتهم التي لم يتحقق منها أي شيء .
لقد رعاك الله بحفظه سنوات، وأعطاك دلائلَ كثيرة يُنهيكَ فيها عمّا أنت فيه.
تريد الحق؟ أنا أولى منك بمكانك هذا، فقدت أمي وأخوتي الصغار وعليَّ كما تفكرون أن أنتقم لهم لكن ممن؟ لِمَ علينا حلّ مشاكلنا بمشاكل أعظم؟ لِمَ علينا أن نُصبح مجرمين كي ننعم ببعض الرضا حسبَ ما تزعمون .
فأجبته:

-بالله عليك أصمت، أمجنون أنت يا زيد؟
كيف تريد مني أن أضرب بعرض الحائط تلك المجازر التي حصلت والتي تحصل هنا وهناك.
ما الحل برأيك؟
إن فكر كلٌ منّا كما تفكر أنت إذاً لِمَ خرجنا للشوارع منذ عشرة أعوام .

فقال :
-أنا لم أقل أن نسكت عن حقنا وأن نجلس مكتوفي الأيدي ننتظر قدراً ما ينتشلنا من بين أنياب هذه الحرب، أردت منك أن تخرج بنفسك وبدموع أمك وحيرة أبيك مما أنت فيه.
هل تعتقد أنك إن متّ الآن فداءً لهذه الثورة ستنتهي؟
مات الآلاف من قبل ولم يتأثر أحداً لموتهم.
الحرية التي تطلبونها لن تولد من عقم بنادقكم ومن أرحام فوهات مدافعكم.
العيش الذي تسعون إليه لن يأتيكم من فوق جثث الأطفال المترامية هنا وهناك، لن يُعصر رحيق انتصاراتكم من عيون أمهاتكم، فهيَ لا تعتصر إلا دماً.
أتدري ما الحرية؟
الحرية يا معاذ عندما تمسح دمعة أمك وأنت بين يديها، الحرية هي أن تعمل لتعين والدك بلقمة عيش تضعها في معدة أخوتك الفارغة، الحرية هي أن تقف كساريةٍ خلف ظهر أختك لكي تتكئ عليها حين تتعب، الحرية هيا أن تتنفس هواء خالٍ من أي شوائب خلفتها بنادقكم، هيا عندما تسجد شاكياً وشاكراً ما كتبه الله لك دون أن يكون

الدم حاجزاً بينك وبين الوضوء.
هذه كلماتي لك ولا أدري هل أتحدث معك غيرها أم لا.
لكني ما أعلمه أني سألقاك يوماً ما في مكانٍ ما، فأنا أثق أن الله سيغير حالنا إلى أحسن حال.

))لروحك السلام يا زيد ...
عندما وصلني خبر وفاتك وأنت في طريقك لتوزيع مخصصات الفقراء، أيقنت حينها بأنك أنت المنتصر الوحيد بيننا.
أيقنت أنك وحدك من نلت حريةٍ كنا نقتل بعضنا لأجلها.
سيذكرك التاريخ أكثر مما سيذكرنا وسينتقمُ لك أكثر منا.
نلتُ حريتي أخيراً يا زيد، وها أنا أنعم بها بعد أن غفلتُ عنها سنين طويلة.
حريةً تجعلني أنا، تجعلني ملكٌ بذاتي، تجعل روحي تتحرر من قيودٍ لم يفرضها عليَّ أحدٌ، حرية سلام يزرع الياسمين وإن طال النبت.
لم يكن ما أسعى إليه حرية ولا حتى من أشباهها، كنت أركض دون اتجاهات، وأمضي دون سبيل.
اليوم فقط أدركت ماتعني بقولك "لم نُخلق لنكون فداءً لغيرنا ".
هنيئاً لك ما نلت من حريةٍ كانت بين يديَّ وكنت أبحث عنها، وتباً ً للحظة كنت أرجو لقائك فيها فأجدني الآن أروي تراب قبرك بدموع قهرٍ وعجزٍ لا تنبتُ إلا ألما)).

إسلام وفوبيا

الأيام تبدو بطيئة، تتهاوى تحت سيوفهم عقولاً تنضخُ بعلمٍ لم يدركوه بعد.
تراكضت خلفهم أفئدتنا تزكيهم وتؤيدهم وترفع راياتهم وتصرخ باسمهم عالياً عنان السماء.
يحكمون باسم الدين ويقيمون شرع الله في الأرض، ولأننا أمةً تقرأ الظاهر من السطور ولا يكلفون نفسهم بالبحث والغوص بين الكلمات، هجرنا ديننا لدينهم نطلب التوبة والقبول من سادتهم.
حطموا تاريخاً عريقاً تحت أقدامهم، ومزقوا تراثنا وعلوم أجدادنا بتهمة الرِدّة والفجور.
حين انسحبت قوات النظام في الثالث عشر من شهر آذار لعام ثلاثة عشر وألفين، دون أي قتال من محافظة الرِقة السورية، كنا وقتها في مجلسٍ يحضرنا فيه الشيخ جار الله.
أذكر فرحةَ الناس جيداً ذلك اليوم، رشقات الرصاص ملأت أرجاء المدينة، والتهاليل والتكبير تصدح بها حناجرنا قبل مآذننا، لم نكن وقتها ندرك ما سيحصل أو حتى فكرنا بما سيحصل.
لكن الشيخ جار الله وفي مجلسٍ آخر قال لنا:
- والله لتأتيكم ساعةً تتمنون يومكم هذا فلا تجدوه، وكان يقصد في كلامه يوم رحيل قوات النظام والأيام التي سبقتها.
ضجرنا من كلامهِ وبدأنا بالتأفف منه ومن مجلسه بسبب ما يتحدث به من سوء ما سيحدث، ولم يعدُ شهراً واحداً إلا وهو وحيداً في

مجلسه يتسول جلوس العاقلين معه.
بدأ (الأحرار) كما سموا أنفسهم بالسيطرة على القرى المجاورة

وجميع أطراف المحافظة، كان الناس ينجرّون ورائهم كالخِراف الجائعة، ولأن كلمة الحق تُضيقُ أنفاسنا، هجرنا جميع العاقلين الذين كانوا يريدوننا صفاً واحداً فيمَ خرجنا إليهِ محذرين من كِثرت الرايات حولنا لكنّا لم نعِ ما يقولون.
وما هي إلا أشهر قليلة حتى اكتظت سماءنا برايات سودٍ، وعجت أرضنا برجالٍ تأخذ من كلامهم الجميل الناصح، ويجعلونك بأفعالهم تُجرُ ورائهم كأنه السحر.
كان الشيخ جار الله مازال يلهث وراءنا يتسول مسامعنا لينطق بها قول حقٍ في زمن الباطل، فصدينا عنه واسكتناه بأحاديثٍ سمعناها حديثاً، لم نسمع بها سابقاً لكن سحر كلامهم طغى على نفوسنا وغسل عقولنا.
ومع كل هذا لم ييأس و واصل جهاده وجمع حوله عقولاً ناضجة، تفهم ما تقرأ وتذكر ما خطه الأجداد منذ مئات السنين، حتى أصبحوا جماعةً تقول الحق ولا تخشى بالله لومة لائم.
يوماً أوقفني الشيخ جار الله ومعه رجُلان، ألَقى السلام وسألني عن جامعتي، استغربتُ سؤاله وابتسمت.
رد عليَّ وقال لا تخف لم أخرف أو أنسى وأدري أنك تركت جامعتك وانخرطت في صفوف المقاتلين حمايةً لأهلك ضد قوات النظام...لكن أين أنت الآن؟
تقتلون من يعلم لتحيوّن به من لا يعلم، كم رأساً فصلتم حتى الآن

ولِمَ.. فقط لأنه قال " لا "؟
كم من طفلٍ يتمتم.. امرأة أثكلتم.. ألهذا تركت جامعتك؟
ألم تقل يوماً إن الأحرار صنيعة النظام لأغراض سياسية، ألم تقل سيأتي يوماً يحلقون ذقونهم ويعودون لثكناتهم.
ما الذي تغير الآن مع هذا التنظيم الخرافي الزائف، تركتم هدفكم بنزع فتيل الجهل من عقول شبابنا، وركضتم تجرون حبال الدجل وتقتيل الناس بما لم يأمر به الله وتربطون به أنفسكم، فلا أنتم تقاتلون الجهل ولا تقيمون حدود الله، تحرّفون ما قاله أسلافنا لصالحكم ومن قال " لا " تقطعون رأسه، وتتركون من ينهب خيرات البلاد وعِلمها وتراثها ويدفن رؤوسكم بوحل الجهل حتى عدّتم زمن الجاهلية.
ألا تسأل نفسك لمَ بقيتم هنا، عاماً كاملاً مرّ على تشكيلكم هذا، تقطعون وتشردون وتنهبون وتسجنون وعدوكم الذي تصورونه للناس تحمون.
بئس ما فعلت وبئس ما تفعلون ....
أعلمُ إن رأسي ستقطع يوماً ما ولعله قريب، لكني أعدك أني سأزرع ألف رأس غيرها قبل أن تُقطع، فمن بدأ دينهُ بكلمةِ (أقرأ) لن يرضى عن جهلكم هذا وأنتم تنثرون أفكاركم الواهية بين الناس.
عدّتُ أدراجي وكلماته تدور في رأسي، تغلبني تارةً وأغلبها تارةً، حتى وصلت منزلي لأجد عنده سيارة تابعة للتنظيم ورجالٌ حولها يجرون أبي يخرجونه عنوةً وصرخات أمي لا مجيب لها.
بقي في السجن أحد عشر يوماً لم أستطع إخراجه حتى إنهم لم

يقولوا ما التهمة الموجه إليه، نعم فعلنا ذلك كثيراً مع جميع من يتم زجهم لحين النظر في أمرهم.
في الصباح أُمرنا أمير جماعتنا بإخراج من تتلى أسمائهم للقصاص منهم في الساحة العامة وكان من بينهم أبي.
توسلت إليه ملياً أن يعفو عنه لكنه لم يقبل وأمر بقتلهم جميعاً للتهم الموجه إليهم.
كانت تهمة أبي إعطاء دروساً في العلوم والفيزياء في المنزل، كان ذلك محرماً البته.
نظرات الشيخ جار الله لي وهم يقطعون رأسه أمام الناس تأكل روحي حتى الآن.
وما هيا إلا أياماً قليلة حتى هجرت المدينة، لم أعد أحتمل نظرات أمي وهي تقول أني من قتلت أبي.
والآن وبعد مضي أربع سنوات على رحيل التنظيم أذكر كلام الشيخ جار الله رحمه الله الذي وقف موقف أبي بعد أسابيع قليلة من رحيلي، وأرى ما كان يراه ويقوله عن شبح الإسلام الذي جاءوا به ونشروه في جميع العالم وما يزالون ينشرونه هنا وهنا فقط لإبعاد الناس عن الإسلام وزرع الإسلام وفوبيا بين دول العالم.

الجوزاء

ربطة العنق هذه تبدو جميلة يا أمي أليس كذلك، هل أرتدي قميصي الأسود أم الأبيض، أيَ عطرٍ استخدم؟....

اليوم سأزور خطيبتي للمرة الثانية، كان موعدنا بالأمس لكنه قد تأجل لسبب أجهله من قِبلِ خطيبتي، اختارتها لي أمي وقالت إنها ستكون زوجة جيدة.

أنا رأيتها حين قراءة الفاتحة، كانت جميلة تملك عيوناً واسعة وأنفاً صغير، ابتسامتها وهي تقدم القهوة لي جعلني ارتبك قليلاً، لا بأس سأعتاد عليها حين نتزوج.

حملتُ بيدي باقة الزهور التي أشارت إليّ أمي أن أبتاعها، مع صحنٌ كبير من شوكولا البندق.

لم تكن طويلة خِطبتنا، رأينا بعضنا مرتين فقط وخرجنا مرةً مع والدتي و والدتها، اختلسنا القليل من الوقت في خروجنا الوحيد، نظرت في عينيها، كان بودي أن أتغزل قليلاً بها، لكنها وعلى عجلةٍ من أمرها سألتني عن يوم ميلادي وشهره. قلت لها حينها أنه السادس من حزيران، ضحكت بفرحة طفولية كأنها ابتسامة نصر.

لم افهم يومها ما كان يدور في رأسها لكنني ابتسمت، حاولت أن أجلس معها، نتحدث، نفهم عقول بعضنا، أشرح لها ما أحب وما أكره لكن ذلك لم يحصل، ما حصل فقط أني تزوجت كما أرادت أمي

ولم أخرج عن عادات وتقاليد المجتمع.
حتى جاء أخيراً يوم زفافنا مع بداية تموز كما حددته وأصرت عليه والدتها.
هذه شمس صبحنا الأول بدأت تتسلل عبر النوافذ.
أعددتُّ القهوة وتقدمتُ إليها بخطواتٍ خفيفة لإيقاظها، ما إن لمستها

حتى قفزت من مكانها تسأل عن الوقت وهرعت إلى المذياع، وقبل أن تتفوه بأي حرفٍ بدأت بتقليب محطاته حتى استقرت على واحدة، استمعت قليلاً ثم تأففت بغضب.
ما الأمر سألتها باستغراب!!
بدأت تتمتم لنفسها: (لقد قالت إن شيئاً ما سيعكر صفوة صباحك لكني لم انتبه وها قد تعكر صباحي)
عاودت سؤالي لها عن الأمر فقالت:
إن مقدمة برنامج الأبراج قالت أن أمراً سيعكر صباحك غداً وها قد تعكر صباحي.
انفجرتُ ضاحكاً يومها وقلت:
حبيبتي هذه مجرد خرافات ولا يصح فيها شيء، لا أدري كيف لفتاة مثلك أن تستمع لهذه الدجالة و تتبع ما تقوله.
لم تقتنع وبدلاً من تغازلنا في أول يوم زفافٍ لنا بدأت بالحديث عن علم الأبراج ودراسته، وبأنه ليست دجل أو كذب وبأنه ومنذ مئات السنين يتداوله الناس ويعترفون به.
مرت الأيام وما زالت أستيقظ على صوت تلك المذيعة وكذِبها

اليومي، لكن لا مفر.
بعد ثلاثة أشهر من زواجنا وبعد أن نفذ صبري، قررت التحدث مع والدتها لعلها تتكلم مع ابنتها، فقد بدأت بتحديد مجريات حياتنا وفقاً لِما تتكلم به مذيعة الراديو.
قلت لها يومها إننا غير منسجمين مع بعضنا، أقرر شيئاً فتلغيه لسبب تافه، نقرر الخروج مثلاً فتمانع بسبب أن الطقس سيكون عاصفاً، علماً أنّ الطقسَ في الخارج يكون مشمساً.
استغربت أمها من كلامي وقالت: عجباً!!
مع إنكما متوافقان بالأبراج.
نظرت إليها وقلت لها: صحيح نحن متوافقون فقط بالأبراج.
لم استطع اعتياد سماع هذا الهراء مع بداية كل يوم، حاولت جاهداً وبكل الأساليب، حدثتها عن التنجيم وتحريم الإسلام لهُ لِما فيه ضرراً على النفس وأضعاف إيمانها بالقضاء والقدر، لكنها لم تقتنع وأصرت أنه مجرد قراءة علمية للفلك وأحداث الكون وأنه من أقدام العلوم التي عرفها الأنسان.
قالت لي يوماً أن برجي هو الجوزاء، وأنه من الأبراج الهوائية ويمتاز صاحبه بمللله السريع من الأشياء التي يقتنيها وتردده الدائم.
يبدو أنهم صدقوا في هذا، يبدو أني مللت منها ومن أبراجها، حتى كرهت الصباح ومجالستها به.
تحدثت لأمي عن أمرها علّها تنصحني، لكن كلامها لم يسعفني ابداً، نصحتني فقط بالاعتياد فأغلب النساء هكذا على حد قولها، ولا يضر ذلك شيئا، لقد تزوجتم وتم الأمر وهذه الأمور التافه ستتغير مع

الأيام.
في إحدى السهرات وقبل انتهاء عامنا بأيام قليلة، عرضت عليَّ أن أترك عملي في الشركة العائدة لوالدي واتجه للتجارة.
اصغيت إليها لعلَّ فِكرتها تكون جيدة، واستطيع إقامة شركة خاصة بي.
بدأت حديثها عن التجارة ومنافعها ومكاسبها المغرية، ثم اتجهت بحديثها عن الكواكب وأن عطارد سيدور في مدار الجوزاء هذا العام،

وأكدت أن مذيعتها المفضلة نوهت بضرورة انتقال أعمالنا إلى التجارة.
يومها عجز لساني الرد على ترّهاتها وحماقة أفكارها.
حتى جاء اليوم الذي لم أعد أحتمل حياتي معها، تكلمت معها عن الانفصال فلم أعد قادراً على الاستمرار، تنهدت ثم نظرت إلي بجديةٍ وقالت:
نعم، لقد قالت ذلك منذ فترة، كنت أنتظر قرارك هذا.
خرجت يومها من المنزل وبراكين الدنيا تتفجر في صدري متجهاً لبيت أهلي.
في الطريق سألني سائق التكسي عن أمري، فالغضب واضحاً عليّ، لم أجاوبه لكن ده ومن خلال فراستهِ وخبرتهِ في الحياة عرفَ أني حديث زواج فقال لي يومها:
تزوج من تحب أنت.. وليس من تحبها والدتك.
طلبت منه فتح المذياع، كنت اريد الهروب منه ومن موضوعه هذا.
في المذياع كانت المذيعة تقول:

تريث في اتخاذ قراراتك عزيزي برج الجوزاء، وحاول إعطاء فرصة لشريك حياتك، ولا تخسره لأسباب اعتيادية وادفع غضبك اليوم بعدم الندم غداً.
ضحكتُ مطولاً ثم طلبت من السائق اعادتي للمكان الذي أخذني منه.

رابطة الحيوانات

بدأ التصفيق والهتاف، جلس الجميع في مكانه المخصص، وقبل أن تهدأ أصواتهم قام الحكيم فيهم وألقى قصيدةً يتغنى من خلالها بحبه و انتمائه لوطنهِ ولرئيس الرابطة، عاد التصفيق والهتاف، عاش... عاش... عاش.

رفع يده رئيسهم يريد الكلام، وأمسك بيده خطاب التنديد والاستنكار، ضرب بيده الطاولة وصاح: لا،

عاد التصفيق والهتاف، وقف الحكيم وارتجل شعراً في كلمته الأولى واستنكاره، وصاح بأعلى صوته عاش الرئيس، فصاحوا عاش... عاش... عاش.

رفع يده شاكراً وطالباً الكلام، عاد الجميع للجلوس والإصغاء، وبدأ الرئيس خطبته الرعناء.

-يا معشر الحيوانات، إن الهجوم الأخير الذي شنتهُ الضباع على أراضينا ما هو إلا فعلةٌ خسيسة، وأنا من منبري هذا أدعو الجميع لمقاطعتهم وعدم شراء فرائسهم وسنحتفظ بحق الرد هذه المرة حفاظاً على المعاهدة التي اجتمعنا عليها معهم منذ ألف عام.

وأنا الآن بصدد سماع أراءكم وما تقترحون.

وقف الدب وقال: يا أسدنا المفدى، اجتماعنا اليوم ليس اجتماعاً اعتيادياً، وأنا أقترح أن نقاطعهم ولا نشتري فرائسهم حتى يعدلوا أو يعتذروا.

وقف النمر وقال: ياحضرت الدب إنّ أسدنا المفدى قال ذلك فلِما تعيد

كلامه؟
فقال الدب عذراً كنت نائماً في سباتي وفاتني ما تحدثتم به.
وقف الحمار الوحشي وقال: أنا أقترح أن نهجم عليهم وأنا بحافري هذا سأقتل عشرة.
قال الجاموس: وأنا سأنطح عشرة.
وقفت عنزةٌ هرمة وقالت: أنا لا استطيع القتال معكم ولكني أفديكم بمالي وما أكنز.
صاح الديك سأنقرهم، ردّ التمساح وأنا سأطبق فكيّ على رؤوسهم، عووا الكلب ونهق الحمار وغردت الطيور النشيد الوطني، ثم قام الحكيم وألقى قصيدته وهتف بروح الأسد المفدى.
ضحك الفهد من بعيد، فغضبت اللبوة وقالت: وما يضحكَ ياهذا؟
فقال عذراً ليس إلا خيالٌ ذهبَ بي لهجومنا السابق وأضحكني، يوم كنا أقوياء.
عمّت الضوضاء المكان، وبدأ النقاش يأخذ شكلاً همجياً بينهم، تنحنح الأسد فصمت الجميع وأمعنوا النظر نحوه لسماع خلاصة جلستهم.
أخذ الخطاب و وقف ليخطب بهم، وقف الحكيم وألقى به قصيدة، ومن شدة جمالها صفق الأسد فمزق الخطاب.
نسي الكلام، حاول أن يتذكر أي كلمة فلم يقدر، فكر وفكر ولم يجد أمامه إلا الارتجال، وقف بينهم وقال:
يا معشر الحيوانات، صحيحٌ أننا نملك من الأسود ألفاً ومن الفهود والنمور ألفاً والحمير ملايين، لكننا نفتقر للثعالب، فقد وقفت مع الضباع منذ زمن، ونحن لا نملك دهائها وحيلتها، وذئابنا شاخت ولم

يبقَ منها إلا العواء.
لذلك أقترح أن يكون الرأي رأيكم فتفرقوا وافعلوا ما ترونه الصواب.
خرج الجميع فرحاً بما جاء وظلت الأرنب عاماً تنشد الأغان والألحان وتهديها لملك الغابة ولبقية الحيوانات.
وعند لقائهم في العام التالي، حظر الجميع إلا الفهد، وكان في المجلس أربعة ضِباعٍ وضبع هرمة.
سأل الرئيس عن الفَهد فقالت الضبعُ الهرمة: قد مُنع من الحضور يا سيدي، فقال: ولِما أنتِ هنا معنا؟
فقالت أنا المعزةُ ياسيدي وفكرتي كانت أن أعطي مالي للضباع ليكفوا عني فأهدوني بدورهم لباسهم لأضبع مثلهم، وقد قلدني بذلك أربعة، هذا الحمار الوحشي قد تضبع و الجاموس و التمساح، والديك ما زال يحاول نتف ريشهِ ليلبس جلده الجديد ويتضبع مثلنا.
نظر الأسد حوله فلم يجد الحكيم فسأل عنه فقالوا: لقد كان ضبعاً ياسيدي وانصرف حين كَثرت الضباع.

الفاشل المتفائل

البياض يُغطي ما حولي، أما الضحكات فكنتُ أرشقها هنا وهناك متفائلاً بما سيأتي، جميع من يُرافقني ويعرف قصتي كان ينعتني بالفاشل المتفائل.

نعم أنا كذلك، لم أنجح بشيء قط، مذ كنتُ طالباً في بداية عمري كان الفشلُ عنوانَ خطواتي، وحين بلغتُ من العمر زهرتهُ قطفتها نيران الحرب التي قذفتني لاجئاً أصارع سنين الغربة.

أما الآن... ها قد بدأت أشعر أني أقطف ثمار ما زرعت، تعلمت أساليب العمل كمرشدٍ سياحي وبدأ مديري بالعمل يعتمد عليّ بالكثير من الرحلات، كنت قبل أشهر بسيطة.. أخطئ في عملي وكانت تصل تلك الأخطاء إلى مديري تارةً من الزبائن وغالباً من أصحاب المحال التجارية التي أُذكرها لزبائني وأسوِّق لها.

أحسست أنّ "فاشلاً" تلك بدأت تتلاشى قليلاً ولم يبقَ من اسمي سوى المتفائل.

وجاءت تلك اللحظة التي التقيت بها برجلٍ في الخمسين من عمره، يصطحب معهُ ابنه وابنتيه في سفرٍ سياحي وقد تم اختياري لمرافقتهم.

جهزتُ برنامج مسيرنا وركبتُ السيارة، ضرب كتفي مخاطباً بنبرةٍ جادّة بعض الشيء تكللها الابتسامة:

- أعرف أن ابتسامتك جميلة يابني، واعلم أنها ضرورية في عملك هذا، لكن حبذا لو تأخذ مني هذه الكمامة وتضعها على فمك فقد بدأ المرض بالانتشار.

نظرت إليه وقد اعتلت وجهي ملامح الاستغراب والحيرة، وفي تردد

قلت له: مرض ماذا؟ لم أفهمك يا عم.
لم أكن مهتماً بما يدور حولي، حتى أني لا أملك حساباً على إحدى المنصات، لا أسمع الأخبار إلا متضاربة من بعض ما يتكلمون به أمامي.
علمتُ منه يومها أنّ مرضاً بدأ بالانتشار وأنّ مصدره الصين، وبعض البلدان بدأت بإغلاق مطاراتها وحدودها كي لا ينتقل إليهم هذا الشبح المميت كما أسمته ابنة ذلك الرجل.
ضحكت في نفسي يومها ونعتُّ كلامهم بالهراء ومضينا، لم أكن أعلم إن الدنيا ابتسمت لي في لحظات ما قبل العاصفة.
مضى أول شهر من هذا العام، كان التراجع في أعداد السائحين واضحاً، لكنهم ما يزالون يتوافدون لرؤية الثلوج والاستمتاع برياضة التزلج، حتى إن ذلك الرجل عاد مرةً أخرى لكن مع أصدقائه هذه المرة، وكان لي نصيباً أن أرافقهم في رحلتهم.
هذه المرة تحدثنا أكثر، وتناقشنا بمواضيع شتى، كان خائفاً من تلك الألواح التي يلبسونها بأقدامهم، حتى إن جسده المليء لا يساعده بتلك الرياضة.
مما أتاح ليّ الفرصة للجلوس معه وشرب الشاي دون أن يقاطعنا أحد.
كنت أرى فيه عقلاً يمشي على الأرض، أعجبتني حكاياته وطريقة تفكيره ورؤيته للأمور.
ضحك فجأة وهو يتحدث وقال: أما زلت متفائلاً، أم إن هذه أيضاً بدأت بالتلاشي.
ضحكت وتذكرت حديثنا قبل شهر حين تحدثتُ له عما يصفوني به بأني فاشل متفائل، والآن متفائلً فقط.
قلت له: صراحةً لا أعلم، لا شيء يطمئن، وأيضاً لا شيء يدعو

للقلق، تضاربت عندي الأحداث ولم أعد أعرف ماذا أفعل، أعتقد إنهُ تضخيمٌ إعلامي وجعجعةٌ دون طحين، أتركها على الله.
ابتسم لكن برياء هذه المرة وقال: أنصحك أن تجمع ما يكفي من مالٍ ومؤن تكفيك سنة من البقاء دون عمل.
أزعجني تشاؤمه جداً لكنني وضعت كلماته رهنَ التنفيذ، فكل يومٍ يمضي يأتي خلفهُ خبر إغلاقٍ جديد حتى دخل علينا أذار وأنا دونَ عمل.
ظننت أنها أياماً وسيعود كل شيء كما كان، لكن الأيام امتدت لأسابيع ومضى شهرٌ آخر ولم تزول تلك الغمامة بل بدأت تكبر أكثر فأكثر، وبدأت الحياة تضيق علينا أكثر، حتى أصبحت فرص العمل ضرباً من الخيال، والخروج من المنازل للشدائد فقط ولم يصبرني على ذلك سوى أملي وظني بالله وتفاؤلي الذي تربيت عليه.
الفاشل المتفائل، ها قد عاد اسمي كاملاً لكن هذا المرة لا ذنب لي بالفشل، يبدو أن الدنيا لم تستسغ ضحكاتي ولم يعجبها أن أفرح قليلاً، لكن لا بأس، سيكفينا الله شحّ الأيام ويعوضنا خيراً.. دائما كنت أقول ذلك وأصبر.
لم يعد عندي ما يكفي لآخر الشهر، ولا أعلم إن انتهت علبة حليب طفلي هل سأستطيع أن أشتري غيرها أم لا، حاولت أن أعمل أي شيء، لكني لم أجد أي فرصة عمل، ولم يعد لدي ما يكفيني لعملٍ خاصٍ بي كتجارة أو غيرها.
وقبل انتهاء شهر رمضان بقليل، كانت تعاسة الأحوال عندي قد وصلت ذروتها، فكتبت أني أبحث عن عمل في حالتي الشخصية لبرنامج المحادثة لدي، لعل أحدهم يتذكرني بأي عمل اقتات به لحين عودة الحياة لطبيعتها.

لم يذكرني سوى ذلك الرجل الطيب، أرسل إليّ وقال:
ها...ألا زلت متفائلاً؟
فقلت له مادام الله يكرمني بالصبر فأنا كذلك.
طلب مني وقتها أن أبحث له عن منزل يشتريه، وسيعطيني أجراً على ذلك.
لم أخفي فرحتي يومها، شكرته على ثقته بي، ولأن معارفي في هذا المجال كثر لم أتأخر عليه أبداً، أرسلت له العديد من الصور وبدوره أرسل إليَّ أحد أقربائه لرؤية المنازل والاتفاق مع أصحابها.
لم افشل هذه المرة، عدت لمنزلي أحمل بيدي علبتي حليب لطفلي وبجيبي ما يكفيني لشهرين آخرين، ولأني تعلمت من تلك الأشهر إن الدنيا لا تمنحنا كل يومٍ فرصة، حافظت على عملي الجديد بعد أن اتفقت مع صاحب المكتب العقاري أن أبحث له عن من يريد شراء منزل وتكون لي نسبة على ذلك.
ومع قدوم الموسم الصيفي كانت الحياة قد عادت لرونقها السابق، وعدت لعملي القديم بالإضافة لعملي الجديد، دون مللٍ أو تذمر ومع الكثير الكثير من التفاؤل بأن القادم أجمل.

ومع نهاية هذا العام العاتم عاد الإغلاق ليسيطر على حياتنا من جديد، لكن هذه المرة لم أنسى كلمات ذلك الرجل الطيب وعملت لها مذ عودتي لعملي...

ولعل القادم أجمل.

الجزيرة المفقودة

عن رواية جزيرة الكنز للكاتب الاسكتلندي (روبرت لويس ستيفنسون)، الصادرة عام ١٨٨٣.

ليلةٌ ماطرةٌ، دخل البحار بيل إلى النزل بعد أن وافق جيم و والدته أن يسكن عندهم؛ فهم بحاجةٍ للمال للقيام بعملية جراحية لوالدة جيم.
كان بيل خائفاً وقد لاحظ جيم ذلك، فحاول التقرب منه أكثر حتى يعرف السر وراء خوفه.
استيقظ جيم في الصباح على صوتٍ قادم من غرفة بيل، حين وصوله شاهد رجلٌ يهرب من الغرفة، فدخل مسرعاً... ظناً منه إن مكروهاً أصاب بيل.
حدثهُ وقتها إنه قرصانٌ يدعى الكلب الأسود، وقد جاء لتخليصهِ صندوقاً عائداً للبحار فلينت، الذي أعطاه الصندوق وهنالك قراصنة يلاحقونهُ للحصول عليه.
بدأت الشكوك تحوم برأس جيم حول الصندوق ومحتواه، وبسبب خوف بيل الشديد على الصندوق تأكد جيم إن بداخله كنز ثمين.
كان لجيم جاراً طبيب يدعى ليفزي، وقد كان جيم يحبه جداً، فذهب إليه وقصّ عليه ما سمع وما رأى.
كان الطبيب قد سمع بقصة مشابها في إحدى حانات الصيادين، فقرر هو وجيم قتل ذلك البحار وأخذ الصندوق منه والحصول على الكنز.
بعدها بأيام قام الطبيب بعطاء جيم سماً لوضعه في طعام بيل، لم

يتردد جيم بذلك، فحبه وحاجته للمال قد غيبا عن ذهنه صعوبة القتل وبشاعته.

أدخل جيم الطعام لبيل وذهب لقضاء عمله، بعد ساعاتٍ عاد إليه بعد أن بدأ يصرخ، يبدو أن السم قد بدأ يسري في عروقه، حاول جيم السيطرة على أعصابه ليهرب من فعلته ونجح بذلك، ذهب الأم مسرعةً لإحضار الطبيب.

في هذه الأثناء قال بيل لجيم:

_هنالك قرصان يُدعى فلينت، قد سرقتُ الصندوق منه وهو الآن يبحث عني بمساعدة سلفر، إن علما بموتي سيطاردان من كان معي، فحذر جيداً على نفسك وأمك، الصندوق فارغ لا كنز فيه!.

لكن يوجد في الصندوق خريطة ستوصلك للكنز إن استطعت ذلك، لكن كثيرين قبلك حاولوا ولم ينجُ منهم أحداً فلا تحاول.

كان جيم يصغي لبيل بشدة، لكنه لم يقتنع بكلامه وفسر ذلك على إنه يريد تظليله وعدم إيصاله للكنز.

حين أتى الطبيب كان قد جهز حقنة فيها سم قاتل على إنها دواء له.

ما هي إلا ساعات حتى توفي القبطان بيل، وحصل الطبيب وجيم على ذلك الصندوق.
حين فتح الطبيب وجيم الصندوق لم يجدوا بداخله كنزاً كما ظنّا؛ بل وجدوا خريطةً قديمة ومفتاح كبير ورسالة لم يعرفوا محتواها.

قرر الطبيب وجيم السفر؛ لكنهم كانوا بحاجة لمساعدين وسفينة، فتحدث الطبيب مع صديق له لتأمين ذلك.

قام البحار هانز صديق الطبيب بتأمين الرجال والسفينة، وماهي إلا أياماً قليلة حتى اكتملت عدتهم وقرروا السفر.
ركب جيم مع الطبيب وخمسة أخرين بقيادة البحار هانز.
كان بينهم رجلٌ بساقٍ واحدة، غامض غريب الأطوار، لكنه ملاحٌ ماهر يجيد التحكم وقيادة السفينة.
كان جيم يشعر دوماً أنه شاهد ذلك الرجل، وحين تحدث معه تأكد بأنه كان يأتي للنزل دائماً، وأنه كان بالأسفل حين فر ذلك الغريب من غرفة البحار بيل.
كان البحار ذو القدم الواحدة والذي يدعى جون سيلفر، هو من يخشاه البحار بيل، وقد حدثه سابقاً بأنه حاول سرقة الصندوق من فلينت قبل أن أسرقه.

في السفينة وأثناء إبحارهم تمرد بعض البحارة بسبب الأوامر الجائرة التي يأمرهم بها سلفر.
فقام سلفر بقتل أحد المتمردين ومحاولة السيطرة على السفينة ومن فيها.
كان الطبيب حينها مع جيم في قمرة النوم ولا يعلمون ما الذي يحصل في الأعلى.
في الأسفل كان البحار هانز يحاول سرقة الصندوق وأخذ الكنز

بمفرده، لكنه لم يكن يستطع ذلك بمفرده مما أجبره على أن يتحدث مع سلفر للتخلص من الطبيب وجيم وبقية البحارة.
أما سلفر فقد كان يخطط للقضاء على الجميع وأخذ الكنز بمفرده وقد جاءه هانز كمنحة من السماء، يساعده بالقضاء على طاقم السفينة، من ثم يقوم سلفر بقتل هانز.
أكملوا رحلتهم بعد أن تعاهدوا على حماية بعضهم وعدم قتل أحدهم للآخر.
بعد عدة أيام واجهتم رياحٍ ضاربة وأعاصير لم يستطيعوا حينها السيطرة على السفينة.
فقام جيم على فوره بفتح الصندوق وأخذ المفتاح والخريطة وأخفاها بكيسٍ جلدي كان قد أتى به من منزلهم، و وضعها تحت ملابسه.
حين اكتشف الطبيب ليفزي أن المفتاح والخريطة قد سُرقت، وقع شكه على سلفر و هانز، فهم وحدهم يعلمون وجود الصندوق معهم في السفينة.
في الليل وبعد أن نام الجميع، قام الطبيب ليفزي بقتل القرصان هانز ورميه في البحر دون أن يدري به أحدا.
ثم وجه الاتهام لسلفر أنه من قام بذلك.
حينها وبمساعدة جميع من في السفينة قام الطبيب بربط سلفر بحجرة داخلية أسفل السفينة.
لم يبقى في السفينة سوى جيم والطبيب ليفزي وثلاثة بحارة، كان أكثرهم خبرةً سمولت الذي توكل بقيادة السفينة إلى الجزيرة المقصودة.
ما إن جاء الليل حتى عادت الرياح من جديد ، وبدأت الأعاصير تأخذ

السفينة يميناً ويساراً، لم يستطع سمولت الصمود في وجه تلك الأعاصير وبدأت المياه تدخل السفينة حاول المساعدان (بن غان و تريلوني) السيطرة على السفينة مع البحار سمولت لكنهم فشلوا وانتهى بهم الأمر حين تحطمت السفينة غرقاً في عرض البحر.
استيقظ جيم ليجد نفسه مربوطاً على جذع شجرة وبالقرب منه جثة الطبيب ليفزي، حاول الفرار لكنه لم يستطع.
بعد قليل سمع صوتاً قادماً من الخلف، استدار ليجد الرجل ذو الساق الواحدة سلفر برفقة رجل كبير في السن.
بدأ يتوسل إليهم أن يتركوه فلا علاقة لهُ بما حصل.
قال له سلفر:
أين المفتاح والخريطة يا جيم؟
نعم أنها معي؛ رد جيم بخوف شديد وأتبع قائلاً:
سأعطيك لكن أرجوك لا تقتلني.
أخذ سلفر الكيس الجلدي من جيم وفتحه فوجد الخريطة والمفتاح.
فك وثاق جيم وقال له أتبعني.
في الطريق عَلِم جيم أن الرجل الذي مع سلفر هو نفسه القبطان فلينت الذي كان يخشاه بيل وتحدث عنه قبل وفاته، وأنه سمع من البحارة في الحانه إن طبيباً مع بعض البحارة ومعهم طفل، قد حصلوا على الصندوق وعرفوا محتواه.

فأخذ سفينته وانطلق ورائهم حتى أدركهم قبل وصولهم للجزيرة بقليل، واثناء العاصفة حين تحطم السفينة استطاع إنقاذ سلفر والطبيب والطفل جيم، وسحبهم للجزيرة.
أخيراً وصل الثلاثة لمكان الكنز، كان عبارة عن كوخ صغير يسكنه رجلٌ يدعى دان، حاول سلفر قتله لكن دان بحكمته وشجاعته

استطاع قتل سلفر وفلينت.
وابقى على حياة جيم ليكون شاهداً على ما حدث ولأنه صغير.
أخذ الرسالة من جيب سلفر وقرأ لجيم ما كتب فيها.
(هذا الكنز عليه لعنة قديمة، لا يستطيع أحداً الوصول إليه فلا تحاول، إن كنت مقاتلاً ستأكلك حيتان البحر، إن كنت بحاراً سيقتلك الحارس دان.
وإن استطعت أن تنجو من كل هذا، فسيقتلك حقدك والأنانية المزروعة فيك، فلن تستطع أبداً الإفلات منها، إنها ستقتلك).
حينها تعلم جيم إن الأنانية تقتل صاحبها، وأكبر عدوٍ للإنسان هو نفسه، يجب عليهِ تهذيبها قبل تهذيب الأخرين.
بمساعدة دان استطاع جيم العودة لأمه بكنزٍ حقيقي، وبعض القطع الذهبية التي أعطاهُ إياها دان لمساعدة أمه المريضة.(١)

---

(١)- القصة عن رواية جزيرة الكنز، وقد تم تغيير بعض الأحداث فيها، بالإضافة لتغيير نهايتها، مع الإبقاء على جميع الشخصيات الأساسية في الرواية الحقيقية.

كفنٌ أسود

رفعت إبهامها عن ذلك العقد الجاحد، بعد أن وضعت عليهِ بصمتِها وآخر كبريائها، بنظراتٍ تتفطرُ لها الأكباد.
اِهتز ضاحكاً بوجههِ الكبير المُفتقر للحياء مذ بدأت صيحات الحرية تصدحُ في أرجاء الوطن.
كان قد استأجرَ بعض المرتزقة والمسلحين ليرسلهم لأماكن يطمحُ بشرائها بعد قصفها، فما إن تنتهي الحياة من تلك المناطق ويخرجُ من بقي فيهم على قيد الحياة، حتى يهمُّ بشراء منازلهم بأبخس الأثمان وإصلاح القليل فيها والتّحكم بمن يريد سُكنها ممّن هُجّروا من قِبلِ تجّار حربٍ آخرين.
مستودعاته المزدحمة بأساسيات الحياة، ملأها بِما يحتكرهُ عن العامةِ ليبيعها بأضعاف ثمنها، ذلك أصبح عملهُ ومبتغاه بعد أن تحول فجأةً من موظفٍ صغير إلى تاجرٍ كبير، وذلك على حساب بطون الفقراء التي التصقت بظهورِهم وهم يتضورون جوعاً لكسرة خبزٍ من ذلك الطحين المتكدس في المخازن.
في مكتبهِ وبعد أن خرجت تلك البائسة ببعض ما يستحقه منزلها من ثمن، وقف ينظر من نافذتهِ إلى السماء وقد أنتصفَ نهارهُ، مُغترّاً بملايينهِ التي جمعها من جيوب الفقراء ولقمةِ أطفالهم، ليملأ بطنه بنعيم الدنيا وقد نسيَ جحيم الآخرة.
وبينما هو كذلك، دخلَ عليه أحد رجالهِ وقال:
- ياسيدي، إنّ بعض تجّار السوق قد بدأوا بتخفيض أسعار الزيت والسمن، بعد أن أعلنت الدولة عن خفض الأسعار في مؤسساتها، فبماذا تأمرنا.

تغير لون وجههِ فور سماعهِ تلك الكلمات وقال:
- اجمعوا الزيوت ومشتقاتها من مخازن السوق وأعدوها للمستودعات لحين انتهاء هذه "الفوضى".
فرد عليه ذلك الرجل بصوتٍ رقيق: لكن ياسيدي، هكذا لم يبقَ للناس ما يأكلوه، فلا طحين ولا أرز والآن تجمع الزيت من الأسواق، لو إنك تبقيه وتخفض الأسعار قليلاً لكي يتسنى لنا بيع ما عندنا، فإن وضعته في المخازن لن يشتريه التجّار بسعرٍ أغلى بعد ذلك.
نهض من كرسيه وقال: هل أعطيكَ راتبك لكَي تناقشني بقراراتي، أخبر عمال المستودعات أن يُجهّزوا مكاناً لما سيأتيهم وفيما بعد سنقوم بإعادتها إلى السوق كما قلتُ لك.

بدأ اتصالاته هنا وهناك، حتى اكتظت مستودعاتهِ بالزيت ومشتقاتهِ ولم يبقَ لغيره سوى رائحتها إن وجدت.
ثم ركبَ سيارتهُ ليتجول بين الأحياء التي يملكها، مروراً بعمّالهِ الموكلين على نزع أُجرة المنازل من ساكنيها، حتى يسدُّ بعض سَغبِ طمعه، ليكمل على ما تبقى من ضحاياه الذين تسبب لهم وشركائهِ بحربٍ لا حول لهم بها ولا قوة.
وقبيل العصر بقليل كعادتهِ يذهب إلى قصره الفاره ليشبعَ عينه الفارغة من جدرانه، ويتنعم بجشعهِ الذي أنساه حتى أن يجعل لهُ من يرث هذا الطغيان الذي أفنى عمرهُ في جمعهِ.
حتى شقيقتهُ الوحيدة لم يحاول مساعدتها بعد أن هربت مع زوجها

وأطفالهِا من بين أنياب الحرب والفقر، كي لا تقاسمه بعض ما يملك.
ولأنّ البطون إن لم تشبع؛ لا يملأها إلا التراب، أراد الله أن يجعل من قصره قبراً لهُ ومن أموالهِ كفناً يُساقُ بها إلى عدل الله و وعده.

ففي تلك الساعة، قرر أن يُخلي قصره من خدمهِ، ومنع أي شخصٍ من الدخول مهما كانت الأسباب، قفلَ على نفسه خزنتهِ في أحد السّراديب، ليشفي مرضهُ بمشاهدة أمواله والتلذذ بلمسها.
أغلق الباب على نفسهِ بإحكام وتربع بين دعوات الفقراء ودموعهم، يلهث وراء دنيتهِ وما يملكه الآخرون.
ضحكاته المجنونة وحديثهِ لنفسهِ وحرارة المكان أشعروه ببعض العطش، مدَّ يده لجيبه وأخرج المفاتيح و وضعها في قفل الباب، تذكّر حينها دعوات تلك المرأة عندما خرجت من مكتبه ببعض ثمن بيتها، ضحكَ في سرهِ وأدار المفتاح في القفل فكسرهُ، نظر لنفسه فجأة فلم يجد سواه في غرفةٍ لا نافذة فيها، صرخ واستنجد لكن دون فائدة، مدَّ يدهُ لأخذ هاتفه الجوال، فتذكّر أنه قد تركهُ في غرفة نومه كي لا يزعجهُ أحدهم في خلوته تلك، صرخ ثانيةً لكن جدران قصره كانت صماء كأذنيهِ مع صراخ الفقراء، ضرب الباب بيده وقدمهِ محاولاً كسره لكن دون فائدة، فقد أحكم صنعهُ بحديدٍ كي يجعله باب خزنته، وهو لا يعلم أنهُ سيكون سجناً أبدياً لهُ.
ظل حائراً يجوبُ الغرفةَ يميناً ويساراً يتخبط بين جدرانها، لعلَّ صرخاتهِ تلقى مسامع الحُراس، أرخى ربطة عنقه التي كادت أن تخنقهُ، عاود الصراخ ثالثةً ورابعةً فلم يجبهُ إلا صدى صوتهِ.
نظر حولهُ، لم يفدهُ بشيءٍ ما قضى عمرهُ بجمعه، جلس عند عتبةِ بابه يدعو الله لإخراجهِ من محنته تلك، حاول أن يتذكر خيراً ينفعهُ ويكون سبباً لقبول دعائه والاستجابة فلم يجد.

ما تذكره هو آخر صرخات الناس تحت أنقاض منازلهم، آخر صرخات الأطفال عند أبواب مستشفياته، دعوات الأرامل والثُكالى ودموع الرجال التي كان بوسعهِ أن يمسحها.

غربت شمس ذلك اليوم، وأشرقت شمس يومٍ جديد وهو يتطلع لنقطةِ ماء يود لو يشتريها بما جمع وعدّد.

ساعتان

ما زالت كلمات طفلي الذي هجّرته الحرب تصدح في أُذني، بحورٌ بيننا، ودولٌ ترفض كلٌ منها استقبال ما تبقى منا.
الأمواج تراقص قاربنا المطاطي، محتفلةً برأس السنة مع من تركناهم خلفنا بألعابهم النارية التي تغزو السماء، وتضيء ما تبقى من ساحل أزمير الذي فارقناه منذ قليل.
ساعتان قد تمسح دموع طفلي الذي هاجر مع أمه في العام المنصرم، ساعتان قد تحقق حلم طفلٍ بلقاء والده، أو إكمال دائرة حبٍ رسمها عاشقان وفرقتهما هاتان الساعتان.
تتسارع دقات قلبي كلما رفعت الأمواج قاربنا، لأزفر ما حبستُ من هواءٍ حين يسكن مكملاً رحلته.
النجوم بدأت تتضح أكثر، وساحل أزمير بات ذكرى لا نراها، أما العُتمة فقد أحاطت بنا وباتت جزءاً من ترحيلنا.
أكتافنا متلاصقة، تتراقص خوفاً كلما اشتدّ صراخُ الأطفال القابعين بين أقدامنا من تأثير الموج.
السائق الذي أخذ على عاتقه قيادة المركب، كان منشغلاً بأغنيته المفضلة، يريد إغنائنا ببعض الأمل والتفاؤل والصبر اللازم لإتمام ما تبقى من رحلتنا.
نظرت إلى السماء متأملاً نجومها، متلذذاً بترديد مفردات طفلي حين أخبرته أني قادم، وأخبرني أنه سينتظرني.
للحظة لم أعِ ماذا حصل، صرخت إحدى النساء مستنجدةً لإنقاذ طفلها

الذي سقط منها، بدت حركتُها ضيقة ضمن القارب، نهض أحدهم ليلقي بنفسه وراء الطفل لإنقاذه، أمسكت به زوجته خوفاً عليه،

عشوائية الحركة أخلّت بمسير القارب، الرجل الذي بجانبي قام لتهدئة الناس صارخاً بهم، حاول السائق السيطرة على اتزان المركب بحركاتٍ معاكسة، بدأت الأمواج بضرب المركب يميناً ويساراً، ومن ثم وجدتُ نفسي في عرض البحر تأخذني أمواجه أينما اتجهت.
حقيبة أحدهم كانت طوق نجاتي مع سترةِ نجاةٍ كنت أرتديها مسبقاً.
صرختُ بأعلى صوتي لكن لا مجيب، الظلام والأمواج منعاني من رؤية ما حولي.
كنتُ قد تعلمت السباحة منذ صغري، لكن أي اتجاهٍ أسلك، قاومت الأمواج يميناً ويساراً باحثاً عن أي شيء ينقذني، وعن من كانوا معي في ذلك القارب الملعون.
لم أفلح بشيءٍ سوى أني فقدتُ ما أملك من قوة في مواجهة تلك الأمواج الضاربة.
برودة الماء الشديدة شلّت حركتي تماماً، لم أعد استطع السباحة، أما كلمة (أنتظرك أبي) كانت تغلي في قلبي وتبعث بي القوة للاستمرار.
الساعتان اللتانِ كانتا كفيلتان بإيصالي لإحدى الجزر اليونانية، حولتني لكتلة خوف في عرض البحر، المجهول يُحيط بي من كل جانب، وتجمد أطرافي جعلا مني لقمةً سائغةً لأي شيء قد يظهر أمامي.
كان بيني وبين الموت نزع تلك السترة الهوائية فقط، بعد أن أخذت مني الأمواج الحقيبة التي كنت أستند عليها.
اليأس قيد يداي وأنا أتخبط بأمواجٍ تُغرقني تارةً وترفعني لألتقط روحي تارةً أُخرى.

ضوء الفجر بدأ يشق طريقه بين ظلمات الليل والبحر، راسماً على وجهي بعض الأمل، علّي أجد أحياءً ممن كانوا معنا.
مع انكشاف الضوء أكثر، رأيت شيء ما يتحرك نحوي، أنفاسي بدأت

تتقطع وبات الاستسلام هو المنجى الوحيد لما أنا فيه، فكرت أن يلتهمني قرشٌ وأنا ميت؛ أهون من أن تتقطع روحي بين أنيابه.
لكن ومع اقترابه اتضحت ملامحه تماماً، كان أحد اليافعين ممن كانوا معنا في القارب، اتجهت نحوه، كان يستند على حقيبة قد وضع فوقها رضيعٌ.
حينما وصلت إليه احتضنتهُ كأنهُ ما تبقى لي من الحياة.
أمسكتُ بيده وسألتهُ عن البقية، فنظر لذلك الرضيع وخاطبه قائلاً:
- لا تخف، ها قد وجدت من يساعدني لإنقاذك...
سألته من هذا؟
قال لي بصوتٍ باكٍ مرتجف:
هذا أخي، أما البقيةَ فلا أعلم عنهم شيء.

قلت له لا تخف؛ سننجو... وستنقذ أخاك.... أعدك بذلك.
نظرت إلى الرضيع، كان قد فارق الحياة، لكنه كان سبباً لإصرار هذا الفتى على المتابعة ومقاومة الموت.
قاطعني قائلاً: أرجوك يا عم... أخي يتجمد ساعدني للنجاة به.

دمعةٌ قد تجمدت على خدهِ لم يشعر بها، وأوجعتهُ رجفةً يتخيلها من أخيه الميت، مسؤوليتي زادت بهذا الفتى، لعليّ أقاوم أكثر، لعل الله أرسله إلي ليطمئن قلبي وتهدأ روحي.
طلبتُ منه الاسترخاء فقط وتحريك قدمية بشكل دائم، لعل الله

يساندنا، فلا معين لنا الآن سواه.
نظر إلي بعينين قويتين وقال: ... الله معنا.

كان بين الحين والحين يمسح الماء عن وجهِ أخيه، يكرر وعوده بإن ينقذه وينجو به، وكنت أكرر وعدي له بأننا سننجو وسننقذ أخيه.

اكتمل قرص الشمس في كبد السماء، وكشف لنا ضوؤها بقايا قاربنا المطاطي والحقائب التي ملأت المكان.
أمسكت بإحداهن وألقيت برأسي عليها مستسلماً، ساعاتٍ في عرض البحر كانت كفيلة بقتل قواي وانهزامي، نظرت للفتى وقلتُ لهُ: هل سأفي بوعدي وألحق بطفلي وزوجتي؟.... فقال:
أمي لم تفِ بوعدها، لقد أعطتني هذه السترة التي كانت ترتديها حين تمزقت سترتي بسلكٍ حديدي خرج من إحدى الحقائب، وبعد أن بقيت معنا لساعة تقريباً، لم تعد تستطيع السباحة أكثر، تركتني وقالت أنها ستعود.... لكنها لم تأتِ.
مضى وقت ليس بقليل وبدأ جسدي يثقل أكثر، بدأتُ أرى الموت يقترب مني، ولم أعد قادراً على التقاط أنفاسي.
لم يعد أمامي سوى أن استسلم للقدر، أغمضت عيني وأرحت جسدي مستلقياً فوق الماء، أنظر للسماء بعينٍ لم أعد أستطيع فتحها، وبدأت دمعتي تنحدر معلنةً يأسي وموتي.

قارب.... إنه قاربٌ كبير!!؛ صرخ ذلك الفتى، فضحكتُ حتى عاد صوت طفلي إلى أُذني.

بدأتُ بالصراخ طالباً نجدتهم، كانوا في طريقهم إلينا، رأيت على متنه بعضاً ممن كانوا معنا، وماهي إلا ساعتان حتى انتهت معاناتنا.

حكاية جدي

جدي...

حان وقت قصة ما قبل النوم .
تعال يا ولدي وإليك ما في جعبتي .
في شبابنا وقبل موتنا جميعاً لم نكن قد أعتدنا مثلكم أن تكون هذه القطعة البيضاء تغطي أفواهنا .
فأفواهنا يا ولدي كانت تأتي مغلقة منذ ولادتنا .
لم نكن نحمل في جيوبنا علبة صغيرة لنطهر يدينا بعد كل مصافحة كما تفعلون الآن .
لقد كنا نتطهر بتراب وطننا ونشهق من هواءه بكل ما أوتينا من قوة .

رغم أن الأوبئة كانت في زماننا أكثر .
الفقر وباء يا ولدي.
المرض وباء.
الجوع وباء.
شح المياه وباء.
اللجوء وباء.
الحرب وباء.

حتى الكلمة وباءٌ كانت في شبابنا.
لكنها لم تكن تصيب أصحاب الكروش والبذل، ولم يهتموا لها.
حتى من كانوا يصرخون ضد تلك الأوبئة كانوا بعد مقابلاتهم يملؤون جيوبهم ويلعنون من يُصاب بإحدى تلك الأوبئة.

حتى قدر الله أن يقضي هذا الوباء الذي بينكم على نصف من كان منا ومن سيبقى منكم .
أصحاب الكروش يا ولدي لم يكن لديهم مناعة إلا على ضمائرهم .
ولم تهتزُ كروشهم إلا عندما طرق هذا الوباء ديارهم .
يا ولدي إن لم يكن تراب وطنك بيدك فلن تتطهر يدك أبداً .
وإن لم يكن هواء بلدك بصدرك فلن تعرف معنى الشهيق ابداً .
أنزع يا ولدي هذا الغطاء عن فمك وقل كلمتك بكل ما أوتيت من قوة .

وتذكر أن تراب وطنك هو الوحيد الذي يُطهر قلبك قبل يدك.

اكتئاب

يعتصر ما تبقى في جسده الصغير من قطرات عرقٍ، دوي صرخاته يملأ أرجاء المكان.
وهي أمامه ترتشف ما تبقى من كأس دموعها مع حرقةِ قلبٍ وغصه تصرخ كفى!! رافعةً يديها إلى أُذُنيها، تُحاول صد ما يخترق من صراخٍ قطنتان قد وضعتهما مسبقاً.
تهوي بيديها المتعبتين إلى جسدِ ذاك الرضيع تحمله بين ذراعيها تضمهُ لصدرها الهرم راجيةً أن يعتصر ما بقي فيهِ من حليب.
كان الطفلٌ رضيعاً لم يتجاوز أسبوعهُ الثاني ك كل أطفال العالم هوا بحاجةٍ لأمه.
كانت بدورها تتخبط شوقاً لاحتضانه أحيانا وأحياناً أخرى تخنقهُ إهمالاً.
تنام تاركةً طفلها غارقاً بصرخاته متلهفاً لأي شيءٍ يروي ظمأ فمه الصغير.
وأحياناً تسهر الليالي تؤلف له الأغاني والدندانة يتفطر جفنيها لساعةٍ من النوم .
تستسيغ بعض الطعام وترفضهُ تارةً أخرى.
تتضارب مشاعرها، تنتج عن ذلك امرأة دون أي إحساس بالمسؤولية.
حتى وصل الأمر لإيذائه وإيذاء نفسها.
يخرج الآن زوجها من قوقعته المصطنعة رافضاً ما آلت إليه حالة

عائلته.
يصرخُ في وجهها محاولاً فرض رجولته الزائفة فيخرج إلى ركنه الدائم في الحانةِ المجاورة
تاركاً خلفه امرأةً تنزفُ ألماً لا ذنب لها سوى أنها وقعت في مصيدةِ اكتئاب ما بعد الولادة
وبلحظةِ يأسٍ تقرر إنهاء ضعفٍ قيدَ حياتها.
تحمل سكيناً لتهوي بها في أحشائها إلا أن صوت صراخ طفلها هذا المرة انتشلها من بين أنياب الموت .
كانت صرخاته كصفعةٍ هوت على وجهها لتعيد إليها قوتها وكينونتها.
لتركض حاملةً طفلها بين ذراعيها القويتين تضمهُ لصدرها المعطاء.
لتتدارك ما آلت إليه حياتها، واضعةً حداً لذلك المرض اللعين.

الهروب

وفي الصباح وبعد أن اكتمل قرص الشمس في كبد السماء، تعالت أصوات الناس هنا وهناك.
فأحدهم يلتقط رزقه، وأخرٌ يجلس على كرسيه المعتاد في قهوة الحي يرتشف الكثير من ذكرياته وبعض القهوة.
وهناك امرأة قضت ليلها تبكي فقيدها، وقد همّت في الصباح لتوديعه ورؤيته لآخر مرة.
أما طفلها فقد خرج كعادته يلهو مع الأولاد في الحي لا يدري ما الأمر.
هذا الرجل قد حمل على عاتقه حملاً لا أعتقد أنه سيكون أهلاً له، لكن ما الضيم في ذلك، لعل الله بين ليلة وضحاها يجعله أهلا لهذا الحِمل.
أنا ما زلت نائماً حتى الأن، لم توقظني صيحاتهم الثكلى، ولا دموع طفلتي التي أغرقتني منذ ليلة الأمس.
حتى انسكاب الماء على جسدي لم يوقظني.
أنا ما زلت نائماً، كما كنت هارباً في الأمس.
هربت كثيراً لأني لم أجد مكاناً بين من كانوا يلتقطون أرزاقهم، ولم يكن لي ذكريات أشرب معها بعض القهوة.
فلم أجد من الهروب إلا الهروب ملاذاً ومهربا.
لأكون هنا أُدفنُ من جديد بعد موتٍ دام أربعين عاماً...

ما العجبْ

قل لي بِربك ما العجب.

إن كنتُ نجماً، إن كنتُ قمراً أو حتى شمساً ذاتُ لهب.
أو كنت حجراً في قعرِ محيطٍ، أو قشةً في بطن موجٍ انقلب.
أو ضحكةً في وجه طفلٍ، أو كنتُ همسةَ عشقٍ، لمسةُ ودٍّ، تراتيل حبٍ، أو وصايا نبيٍ صُلِب.

أو كنت ذا قلبٍ غليظ، لم أعِ معنى السعادة، لم أجد فرح النجاحِ، لم ألتمس يوماً كجنةِ (حي على الفلاح).

أو كنت في يومٍ كطفلٍ شاحبٍ، لا يعرف من دنياه سوى زاويته وإشارةٍ ضوئية وبعض شتائم المارّة وكفوف اليافعين.
أو كنت حتى دميةً من قماش، تلهو بها طفلةٌ قد غلبها النعاس، فأغفو وكلّي فرحةً لا أرجو بزوغ الصباح.

قل لي بربك ما العجب.

إن كنتُ سفاحاً بعينٍ واحدة، أو كنتُ وجهاً ذا غضب، أو كنتُ رصاصة في رأس مُنتحر، أو كنت صرخة مُعتقل، أو كنت أرملةً ثكلى استشهد زوجها برصاصة حامي الحمى، أو كنت يتيماً بائساً لا يعرف لأبيه سوى اللحد، أو كنت يوماً لاجئاً لا يعرف من قاتلهِ الحرب أم المنفى، أو كنت جندياً طموحاً يريد أن يرى وطنه دون حرب، أو كنت جندياً لا يخاف، قلبي قطعة من حطب.

أو كنتُ رملاً، أو كنتُ حصى، أو كنت شيئاً بائساً، أو عوداً يابساً، أو كنت متجراً للأطفال لا أحتوي على لعب.

لكن بربك لا تقل لي ما العجب.

إن عشتَ يوماً ببلادٍ فيها الهواء يُغتصب
فيها العذارى تُغتصب
فيها الحجارة تُغتصب
فيها الطموح يُغتصب
فيها الرجال بلا حولٍ كل يومٍ دموعهم تغتصب.

بربك لا تقل لي ما العجب إن عشت يوماً واحداً بلا حريةٍ لأجلها حياتنا تُسلب...

النـهايـة

شكراً لحُسن قراءتكم

مع محبتي

مصطفى المفتي

2022

قطعتا سكر في كأس شاي بارد

منجلٌ مكسور

ثلاث فوارغ ومقذوفٌ قد نزعتهُ من معصمي.

طاولة صغيرة عليها ثلاث كلماتٍ من شطرٍ لم استطع إكمالهُ،

وقلمٌ يكتب حرفاً ويشطب آخر، وفراغٌ كبير.

نصف سكارة أُطفئت، أنتظر نزع الكِمامة عن فمي لأُكملها من جديد.

وكثيرٌ من الكلمات العالقة الممنوعة، قد بدأت بالتكاثر في قلبي.

عروق يدي التي قطّعها الشوق، وشرخٌ في القلب وصداع،

وحجرٌ ملحي، ونصف ليمونة أداوي بهما جراحي.

هذا كل ما أملك يا صفية الوجهِ، فاطلبي الحبَ من غيري.

آه كدّت أنسى...

أملكُ حكماً بالإعدام إن فكرتُ في حلمي.

آلا
للنشر والتوزيع

GGKEY:6HUHW6PDJ2T